

رواية

الدكتورة

دانة أحمد الجدع



ISBN 978-9957-05-181-5





دار الضياء للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

صندوق بريد : ٩٢٥٧٩٨ - الرمز : ١١١٩٠

هاتف وفاكس : ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٧٨٥٠٢

البريد الإلكتروني : info@daraldia.com

الموقع على الإنترنت : www.daraldia.com

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠٠٨/٦/١٨٨٢

٨١٣,٩

الجدع ، دانة

أمل في القمر / دانة أحمد الجدع _ عمان : دار الضياء ، ٢٠٠٨

(١٤٨ ص).

ر.إ. (٢٠٠٨/٦/١٨٨٢).

الواصفات : // الروايات العربية // القصص العربية // العصر الحديث /

■ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

١٤٣٣ هـ | ٢٠١٢ م

تصميم الغلاف: أنس أحمد الجدع

رسمة الغلاف: دانة أحمد الجدع

الكاتبة

دانة أحمد الجدع، أربعة وعشرون عاماً، مواليد ٢-٣-١٩٨٤ الدوحة – قطر.

قضيت عشر سنين في قطر ثم عدت إلى أردننا الحبيب عام ١٩٩٤، درست في مدارس متنوعة وتخرجت من مدارس الدر المنثور لألتحق بالجامعة الأردنية لأدرس الطب.

نشرت أول رواية لي بعنوان: الخامسة مساء الجمعة، بتاريخ ٢٠٠٨/٥م، وبدأت كتابة هذه الرواية –أمل في القمر– فور انتهائي من الرواية السابقة.

الإهداء

أهدي هذه الرواية لوالديّ الغاليين على قلبي، شاكرة لهما حسن الرعاية، والعون طول الطريق.

دانة أحمد الجدع

Danajada84@yahoo.com

www.dr-danajada.com



التقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

بفيض من الاعتزاز أقدم ابنتي روائية، تكتب روايتها (الخامسة مساء الجمعة) التي تبلغ أجزاؤها ثلاثة، وصفحاتها ألفاً وستمئة، وهي تتم دراستها للطب في الجامعة الأردنية، ثم تثنّي برواية أخرى (أمل في القمر) وهي تزداد تمكناً من هذا الفن الجميل.

طبيبة، وتبدع الروايات، هل هي بدع في هذا؟

أقول: كلا، فإن بين الرواية والطب رحماً موصولة، فقد اشتهر من الأطباء من هم من كبار الروائيين، أذكر منهم نجيب الكيلاني، ويوسف إدريس، وهما ما هما شهرة وتمكناً من هذا الفن الجميل، وآرثر كونان دويل مبتدع شخصية شارلوك هولمز في الأدب البوليسي العالمي.

ولعل علم الطب الذي يعالج ما ينتاب الإنسان من أمراض الجسد والنفس من أقرب العلوم إلى فن الرواية، فبينما يشرّح الطب جسم الإنسان ليهتدي إلى أمراضه ويعالجها، يقترب من الرواية التي تشرّح المجتمع وأمراضه، وتحاول أن تهدي إلى علاجها.

الطبيب الذي يعالج الأمراض ويطبب النفوس هو الأقرب إلى المجتمع، وهو أكثر الناس إدراكاً لمعاناته وخبرة في علاجه، وهو لذلك أقدر على إبداع الرواية بتفاصيلها.

إذن لا عجب بأن تبدأ هذه الروائية الصاعدة حياتها العملية وهي تبدع هاتين الروايتين الرائعتين، ولعلهما تكونان علامة بارزة لما هو أكمل وأجمل في مسيرتها الروائية، وهي تزداد خبرة بالمجتمع، وآماله، وآلامه، من خلال ممارستها لطب الأجساد والنفوس، ومن خلال احتكاكها المتزايد والمتنامي بالمجتمع من حولها.

الرواية الأولى (الخامسة مساء الجمعة) دخلت في تفاصيل المجتمع، محللة لشرائح منه، رابطة بمهارة بين هذه الشرائح، مستدعية من المستقبل شريحة مزجتها بشرائح الحاضر، وعالجت فيها ما تتوقع من أمراض وانحرافات أفرزتها عوامل تتخيل أن المجتمع الإنساني سوف يعانيها جراء مسيرته التي تنحرف به عن الغايات النبيلة.

أما روايتها هذه (أمل في القمر) فهي تعالج فيها مشكلة العزوف عن العمل والانصراف إلى العزلة، وهي معالجة جميلة وماتعة، لا تستطيع إذا بدأت في قراءتها أن تتركها قبل أن تتمها.

ابنتي طبيبة وروائية...! هذا ما يبعث الانتشاء في نفسي، لقد نجحتُ أنا إذ نجحت هي... ولله الحمد.

أحمد الجدع

فجر الأربعاء ١٤٢٩/٥/٩هـ

الموافق ٢٠٠٨/٥/١٤م

الفصل الأول

كنـت أسـير في الطريـق، الأزهـار عـن يمـيني، والأسـواق عـن يساري، والعربات الفخمة تركبها النساء العصريات ذاهبـات آيبـات، جعلني أشعر أنني لا أنتمـي إلى هنـا، بـل لا أنتمـي إلى هـذا الطريـق! فثيابي رثة، وشعري أجعد، ونظاراتي صـدئة، وحـذائي أغـبر، أنظـر خلفي بـين الحـين والآخـر خـشية أن يكـون الطريـق قـد اتـسخ بآثـار أقدامي!

لم أكن لأدخل أي سوق، كنت أعرف حق المعرفـة مـا سيحـصل، ولم أكن أريد لأي شخص أن يعرض نفسه لموقـف سـيء بالـصراخ علـي لأخرج، ولم أكـن أريـد أن أعـرض نفـسي للإحـراج، علمـاً أنـني لطالمـا اضطررت إلى ذلك!

تعبت من الطرق على الأبواب، تعبت من طلب المعونات، تعبت من الوجوه العابسة التي تقفـل البـاب في وجهـي، تعبـت مـن الأطفـال يركضون خلفي! إلى متى سيظل هذا الحال؟

تجرأت لحظة بالوقوف أمام فندق كبير، بـراق المـداخل، أخّـاذ المنافذ، تقف أمامه سيارات من أرقى الأنواع، التي لم أكن أحلم يوماً في

اقتناء مقودها، أو حتى لمسها وهي تقف إلى جانب الطريق!

نظرت في إحدى النوافذ، فإذا بالجرائد معلقة لمن يقرؤها، وليت أحدهم كان يقرؤها، ربما ظننت أنها من حقي طالما أن أحداً لم يكن ليلمسها إذا لم أفعل أنا، ولكنني وبعد أن مددت يدي انتبهت إلى أناس يقتربون، فتراجعت من فوري، ووقفت خلف الجدار عسى ألا يراني أحدهم!

لم أكن شديدة الذعر حيث كنت قد تعرضت للأسوأ، ومع ذلك ظللت خلف الجدار عشر دقائق حتى تأكدت أن ما من أحد بات في الطريق، فعدت لا أدري لماذا ما أزال أريد الجريدة!

ربما أكون فقيرة، ربما أكون بحاجة إلى قوت يومي، ولكنني أجيد القراءة، وكنت قد تعلمتها في صغري، في أيام كانت الأجمل في حياتي، حيث اللعب واللهو ومتاعب الحياة وراء ظهورنا!

اقتربت أكثر من الجريدة، حدقت فيها أكثر فأكثر، مددت يدي ولكنني قرأت عنواناً على طرف الصفحة الأخيرة، ربما كان القدر هو من قاد عيني إلى تلك الزاوية الصغيرة، لأن الذي كتب فيها كان إعلاناً لوظيفة! ظننت أنها ستكون وظيفة صغيرة بسيطة ربما يقبلونني فيها إذ أن الحال ليس على مايرام في كلا الطرفين، فرفعت

الجريدة بهدوء بطرف إصبعي خشية أن تتسخ، وقرأت الإعلان كاملاً:

مطلوب موظفة تعمل على تنظيف المنزل في الشارع الثامن المؤدي إلى المنارة الكبيرة.

فقط، هذا ما كان مكتوباً، ظننت أن العنوان غير كاف! هل يدفعون في الإعلانات على عدد الأحرف والكلمات؟

لم أكن لأهتم بالأمور التجارية، ولم أكن أسعى لنقود وافرة، كل ما كان يجول في ذهني أنني أحتاج مكاناً أنام فيه الليلة على الأقل!

تركت الجريدة، وغادرت الشارع، واتجهت إلى حيث أشار العنوان، ظننت أنني سأضطر لدق باب كل منزل لأعرف أي منزل هو المقصود، ولكن الوضع لم يكن كذلك، حيث أن المنزل كان وحده!

وقفت أمام المنزل، لا أدري أحلم أم علم! هل هذا هو المنزل الذي ينشر إعلانه في زاوية الجريدة كقصاصة ورقة تطير في الهواء لا تعلم في أي أرض ستحط! ألم يكن أولى به أن يبعثر بطاقات وأرقاماً في كل زاوية من المدينة لتتنافس أرقى النساء على القدوم إلى هنا!

المنزل كان كبيراً، أظنه يقع على أرض تقارب الخمس دونومات! علماً أنني ضعيفة في المساحات أيضاً حيث لم أملك يوماً منزلاً في عُشر هذه المساحة! ولكنني أظن أنها تقارب الخمسة أو أكثر!

واللون الأخضر يلف جدران المنزل من كل مكـان، أمـا الـسقف فكانـت القباب تعلوه كمنازل القـرن الماضـي! لونهـا أصـفر لمّـاع! أظـن أن مطـر البارحة كان السبب في غسيله، حيـث لا أظـن أن أحـداً ربمـا يـصل إلى أعلاه!

اقتربت من المنزل أكثر، لم أكن أؤمن أنني سأعمل فيـه، ولكـن تجربة دق الجـرس كانـت كافيـة بالنـسبة لـي، ربمـا تناسـيت كيـف سيكون وجه سيد المنـزل عنـدما ينظـر إلـي في ازدراء، ويغلـق البـاب متمنياً أنه لم ير أحداً في يومه هذا، ولكنني تماسكت ومشيت، خطـوة بخطوة بت قريبة، أو كما ظننت! حيث أنني اكتشفت أنني لم أكن قـد قست المسافات جيداً، حيث أن المنـزل بـات أكـبر ممـا ظننـت! فكلمـا اقتربت منه زاد حجمه، وزاد الطريق طولاً!

وصلت أخـيراً، هـذه المـرة أمـام البـاب الـذي كـان يفـوق طـولي مرتين، وعرضه قـادر علـى أن يـدخل سـبعة أشـخاص دفعـة واحـدة! نظرت يميناً ويساراً أبحث عن بداية المنزل، فعجزت عيني عن قيـاس المسافات ثانية، فاستسلمت، ونظرت إلى الباب أمامي، هـل أتراجـع أم أدق الجرس؟

كان للمنزل هيبة كبيرة، وكأنه منزل الروايات القديمـة، ربمـا

شيء أكبر من ذلك أيضاً، فكلما نظرت إليه شعرت أنني سأسمع صوت عزف يصدر من أطراف النوافذ المغلقة! ربما كان هناك من يعزف الآن.

نظرت إلى الجرس فإذا به مصنوع من مادة شككت أنها الذهب! إذ أنني لم أره قريباً إلى هذه الدرجة من قبل! رفعت جسدي لأقترب منه أكثر، وأحدق به يلمع أم لا، حيث كنت أعرف أن الذهب يلمع، فإذا بالجرس يلمع في عيني فأغلقت عيني فوراً وسقطت على الأرض!

نهضت أنفض الغبار عن ثيابي، ولكنني ابتسمت وتوقفت، حيث أن مدخل المنزل سيكون بكل تأكيد أنظف مما أرتدي!

حدقت ثانية في الباب، فاكتشفت ما لم أركز عليه من قبل، إنه متسخ! ونظرت إلى أرض المدخل فإذا بها متسخة أيضاً، ألا يعمل أحدهم هنا على الإطلاق؟ هل كنت أول من رأى الإعلان منذ سنين؟ أم لأن الإعلان يقع في زاوية الجريدة، لا أدري، ليس مهماً إذ بت الآن هنا، إذا كان علي تنظيف المدخل مقابل خطوة واحدة في هذا المنزل فسيكون هذا بالنسبة لي عرضاً سخياً.

مسحت إصبعي بأنظف بقعة من ثيابي، ومددتها أراقبها كيف ستدق الجرس، استغرقت في ذلك ثوان كانت بالنسبة لي ساعات، وضغطت الجرس.

بيت بهذا الحجم كان لا بد أن يكون صوت جرسه مرتفعاً، بل مدوياً في كل الأرجاء، بل ربما يصل صوته إلى الشوارع البعيدة! وقفت قلقة مما فعلت، هل كان علي أن أضغط الجرس أم كان علي أن أفعل شيئاً آخر؟ هل كان علي أن أحضر من الباب الرئيسي أم كان علي أن أبحث عن أبواب خلفية؟

شعرت بالقلق، وفكرت أن أبحث عن باب خلفي! ولكن فات الأوان لذلك حيث كنت قد ضغطت الجرس! انتظرت خمس دقائق بتقديري، حيث لم أكن أمتلك ساعة، ولم يحضر أحد. علمت أنه كان علي أن أبحث عن باب خلفي، فمشيت مع جدران المنزل، أبحث وأبحث عن أي باب آخر.

لم يكن هناك طريق أسير فيه، كنت أسير على الأعشاب المبعثرة في كل مكان دون عناية، من الواضح أنها أعشاب غير مرغوب فيها! ولم يكن للمنزل حديقة أو حتى سياج من أي نوع! والجدران كانت خضراء ليس لأن لونها كذلك، بل بسبب الطحالب والفطريات التي تغطي أطراف الأحجار! لم أكن لأنتبه لذلك إن لم أكن تناسيت حجم وفخامة المنزل! ولكن مع ذلك كنت ألمح أحياناً شيئاً من داخل المنزل عبر النوافذ، لم أكن أعني اختلاس البصر أو ما شابه، ولكن كان هناك من الأثاث ما سيجلب بصر أي كان!

لمحت المصابيح المعلقة من كل الأشكال والألوان، كانت مزخرفة بلآلي غالباً ما كانت تعكس ضوء الشمس الداخل من النوافذ وتعيده على عيني! وهناك براويز وتحف جميلة، لم أكن أستطيع تمييزها بكل وضوح ولكن على الأقل أنا أدرك أنها هناك، تنتظر خادمة تمسح عنها الغبار كل يوم، وهذه الخادمة بالطبع لن تكون أنا!

وسط كل هذه الأفكار والمشاهد نسيت أمر الباب! بل لم أكن قد مررت على واحد! ومر الوقت واكتشفت أنني عدت إلى الباب الرئيسي! وقت طويل قد مضى على ذلك دون أن أدري، ولكن ما إن عدت إلى البوابة حتى رأيتها مفتوحة!

الفصل الثاني

كان منظر البوابة وحده مخيفاً، كحوت ضخم يشق فمه ليظهر فاه الكبير المؤدي إلى الظلمة الحالكة! وقفت أمام الباب الذي لم يكن مفتوحاً بالكامل! ولم يكن أحد هناك.

فكرت أن أدق الجرس ثانية، ولكنني لم أجرؤ، فرفعت يدي هذه المرة إلى الباب، وطرقته بمؤخرة أصابعي بخفة، علمت لحظتها أن منزلاً كبيراً كهذا سيحتاج إلى صوت جرس كبير ليسمع صاحبه بقدوم الزائر، بل وعلمت أيضاً أنه كان علي أن أنتظر أمام الباب مدة أطول ليحضر صاحب المنزل إلى الباب من المكان الذي كان فيه! فقد استغرقتُ وقتاً طويلاً في طوافي حول المنزل.

لم أكن أنوي أن أفتح الباب بنفسي، فكنت أعلم أن أحداً لا يحب ذلك، ولكنني كنت أريد أن أطرق الباب ثانية بأصابعي عندما فتح صاحب المنزل الباب.

سحبت يدي بسرعة قبل أن يلاحظها، ووقفت باحترام لألقي التحية على صاحب المنزل المحترم، استغرق فتح الباب وقتاً، إلى أن شاهدت من كان يقف خلفه، إنه شاب في الثامنة عشرة!

لم يقل الشاب شيئاً، بل كانت عيونه باردة كأنه استيقظ من النوم للتو! رحبت به كأخ صغير لي، حيث كنت قد بلغت الثلاثين، ومع ذلك كان أطول مني ببضع سنتيمترات. ولكنه لم يأبه بالأمر، وظل يحدق بي دون أن ينطق بأية كلمة، فقلت: "هل أستطيع أن أقابل صاحب المنزل إن لم يكن هذا يزعجه؟"

ظل الشاب صامتاً يحدق بي، لم أعرف بم شعرت لحظتها ولكنني بدأت أنتبه إلى ملامحه، رغم هذا التعبير على وجهه إلا أن عيونه كانت أخّاذة! براقة بلون مميز، ربما كان قريباً من الزرقة إلى الخضرة، وشعره ينساب إلى حافة كتفه كما ينساب النهر في الجداول، بشرته بيضاء صافية، تجعل من شعره الأسود أكثر حدة، وشفته ملساء تغطي فماً يبدو أنه لا يفتح كثيراً! وقد كنت محقة عندما ظننت أن فمه لا يفتح كثيراً حيث أنه لم يحركه البتة، بل انزوى على طرف الباب مشيراً إلي بالدخول.

كنت قد عبرت فيما مضى ما عنى لي أن أخطو خطوة واحدة داخل المنزل، ولكن تلك الخطوة كانت أثمن من ذلك بكثير، فقد كان بلاط المنزل راقياً، بل فخماً جداً، أستطيع أن أرى انعكاس وجهي من خلاله، كان مزخرفاً برخارف دقيقة محفورة بعناية، ظننت أن كلاً

منها احتاج نحاتاً خاصاً للمهمة، ونسيت تماماً وجود الآلات العصرية في وقتنا الحالي، ربما لأن طراز المنزل كان على شاكلة العقد القديم.

ويبدو أنني نسيت أمر حذائي البالي، حيث خطوت الخطوة التي كنت أحلم بها وتوقفت، توقفت أنظر في حذائي الذي أفسد الصورة الجميلة أمامي! عندها نظرت إلى الشاب خشية أن يعاتبني على ما أفعل، ولكنه لم يكن يأبه بذلك على الإطلاق، بل ترك الباب مفتوحاً وسار إلى داخل المنزل.

كنت أريد أن أتبعه بسرعة قبل أن أضل الطريق، ولكنني نظرت إلى الباب مفتوحاً، ربما يدخل لص ويكون الأسعد بحصوله على غنيمة ثمينة كهذه! فقررت أن أقفل الباب بسرعة، على الأقل ألا أتركه مفتوحاً على مصراعيه لكل زائر!

أمسكت المقبض ودفعت الباب بقوة ظناً مني أنه سيكون ثقيلاً، ولكنه لم يكن، وطبق مصدراً صوتاً مرتفعاً سيصدر صدىً في أرجاء الصالات الكبيرة بكل تأكيد!

نظرت إلى حيث الشاب ولكنه كان قد اختفى عن ناظري! أسرعت لألحق به أيا كان ولكنني أوقفت نفسي، ربما يريد أن يحضر صاحب المنزل إلى البوابة ليراني، من الأفضل ألا أتسرع في الدخول،

يكفيني أنني أقف حيث أحلم، والحلم الكبير هناك في الداخل، بعيد بعيد المنال!

انتظرت حيث الباب، مضى وقت طويل على انتظاري، ولكن كان من المستحيل أن أجول في المنزل وأتوه فيه دون علم أحد، فتمالكت نفسي، الباب خلفي وأستطيع أن أغادر في أية لحظة ولكنني لن أفعل، حتى لو اضطررت للنوم على العتبة هنا، سيكون ذلك خيراً من الخروج والعودة إلى الشوارع.

طال الوقت، وأقنعت نفسي أن المنزل أكبر من أن يقطع أحدهم فيه المسافات بسرعة، ولكنني تعبت من الوقوف، فجلست أرتكز على الباب، وحدقت به فإذا به نظيف، إنه ليس كما في الخارج، من الغريب كيف اختلف الوضع بين هنا وهناك! في الخارج كان المنظر وكأن المنزل مهجور ولا يقوم على العناية به أحد، أما من هنا فبت أظن أن مئة عامل يعملون هنا ليل نهار، إذن ماذا أفعل أنا؟

انقطعت أفكاري هنا برؤية الشاب يعود ثانية إلي، وقفت بسرعة، ونظرت إليه فإذا به يحمل حذاء نظيفاً بين يديه، جثى على الأرض ووضعه أمامي، شعرت بوضع غريب ولكنه خاطئ! كيف له أن يجثو أمامي هكذا! حاولت أن أقول شيئاً أو أن أمنعه من ذلك ولكن

الأوان قد فات، ولم تكن علامات تدعو إلى القلق على وجهه، بل كان لا يأبه بأي شيء بعد، ولم ينطق بأية كلمة!

أشار إلى الحذاء إشارة كأنه يقول: "تفضلي" فخلعت حذائي البالي، وارتديت الحذاء النظيف، إنه لم يكن نظيفاً فحسب، بل كان ناعماً وجديداً، ذا لون أزرق، ومحاطاً بزخرفة صفراء لطيفة.

كنت سأظل أنظر إلى الحذاء نظرات الإعجاب لولم يشر إلي الشاب بالدخول، سار الشاب إلى داخل الصالة فتبعته بسرعة، وأخيراً استطعت أن أرى الصالة كاملة، جدرانها مرتفعة جداً، ووسط السقف تتسلق الأضواء المزخرفة باللآلئ، علمت أنها هي التي كانت تعكس أشعة الشمس علي في الخارج، حدقت في الجدران، كانت تحوطها ستائر من المخمل الثقيل، بألوان براقة من برتقالي إلى أصفر وأحمر، وفي الصالة نفسها كراس من الخشب المحفور، كل زخرفة كانت أجمل من أختها، ووسط الزخارف تتمايل البطانيات والوسائد وإلى ما فيها من الحرير الذي لم أر مثله في حياتي!

وسط الصالة أشجار مزهرة، وثمار شككت أنها حقيقة، ولكنني توصلت إلى نتيجة تقول أن هذه هي حديقة المنزل، وأنني كنت مخطئة عندما ظننت أن المنزل لا حديقة له.

طبعاً طالما هناك أشجار فلابد أن يكون هناك ماء، نعم، فقد كانت النوافير تزين الصالة في كل زاوية، ومياهها تصل إلى الأشجار عبر دهاليز تحت البلاط الشفاف، كان المنظر وكأنه الجنة.

تابع الشاب سيره داخلاً إحدى الممرات، فتبعته، ولكن عجبي كان أن الممرات تؤدي إلى ممرات، ثم تؤدي إلى ممرات أخرى فأخرى! كل ممر كان يحوي باباً أو أكثر، وكل الأبواب متشابهة! وكل الممرات متشابهة، جميلة ولكنها متطابقة! يصعب علي معرفة الممر الذي سرت فيه من الذي لم أسر فيه بعد! ولكن لم يكن يبدو أن الشاب يعاني من مشكلة في العثور على طريقه، فقد كان يسير سير الواثق، دون أن يتلفت يميناً أو يساراً!

أخيراً وصلنا إلى حيث كان يقودني الشاب، فتح باب غرفة ظننتها صالة لاستقبال الضيوف، طبعاً أنا أعلم أنني لا أعد نفسي ضيفة، ولكن ما الذي ظل في غرف المنزل إلا هذه! ولكنها لم تكن كذلك، بل كانت غرفة نوم!

أعرف أنني كنت قد وصفت جميع الغرف التي قد مررت بها، وتوقفت الآن عن وصف جمال هذه الغرفة، إلا أنني لحظتها لم أنتبه إلى ذلك، فقد كنت مندهشة بدرجة لم أستطع فيها التركيز، فنظرت

إلى الشاب الذي أشار إلى داخل الغرفة، وأخيراً حرك فمه لينطق بـأول كلمة ينطق بها مذ حضرت.

أنا أعلم أيضاً أنني لم أرو ما قاله لي الشاب لحظتها، لأنـه كـان هناك ما هو أهم أيضاً، ردة فعلي القاسية، التي فاجأته بهـا أكثـر ممـا فاجأني هو به إلى الآن، فقد قلت له بكـل صـراحة، وقـد حـان الوقـت لأكون صريحة: "عفواً سيدي، أنا صماء لا أسمع".

هنا ارتسمت تعابير لأول مرة علـى وجـه الـشاب، أعلـم أنـه لم يكن شيئاً جيداً، ولكن على الأقل بـات الـشاب أكثـر واقعيـة بالنـسبة لي، فقد اتسعت عيناه الجميلتان من الدهشة، واستدار فمه من غرابـه الموقف، لم أنطق بكلمة أخرى، وسرعان ما تمالك نفسه، وأغلـق فمـه وأطرق ينظر بعيداً عني، كانت عيناه تقـابلان طـرف الـسرير، وكنـت أعلم أنه لم يكن ينظر إليه، بل كان مطرقاً في التفكير، لم أكن أعلم فعلاً هل كان يفكر فيما سمع، أم أنه يحاول استيعاب ما سمع، أم يفكر فيم يجيب، وهذا كان ما لن أسمعه في كل الأحـوال، أو أنـه يفكـر بطريقـة يخرجني بها من المنزل كما كان من قبله يفعلون على عتبة الباب.

ظل على هذه الحال دقائق، عنـدها قلـت وأنـا أحـاول أن أحـافظ على صوتي منخفضاً قدر المستطاع، حيث كنت أعلم تماماً أنني أتحـدث

بصوت مرتفح حيث لا أستطيع أن أسمع ما أقول: "أنا آسفة لذلك، إذا لم تكن تريد أن تحضر لي صاحب المنزل فأنا أتفهم الأمر" لحظتها بدأ الشاب يضحك، لم أتوقع ردة الفعل هذه ولكنه نظر إلي وعلى وجهه ترتسم ابتسامة لم أر أجمل منها من قبل! وقال شيئاً لم أسمعه أيضاً، ولكنني أظنه كان يحدث نفسه بهذه الجملة، فقد سكت يحدق بي وما تزال ابتسامته في مكانها.

لم أزد على ذلك شيئاً، فكان من المفترض أن الشاب قد فهم كل ما أريد أن أقوله، عندها نظر الشاب إلى السرير وأشار لي بالدخول، فهمت من إشارته أنه يقصد أن هذه هي الغرفة التي سأنام فيها كموظفة في هذا المنزل، إذا كان صاحب المنزل سيوظفني!

الآن أستطيع أن أعبر عن جمال الغرفة حيث ركزت فيها أخيراً، كان في الغرفة فراش مزدوج، وأريكة أمام تسريحة، وخزانة كبيرة عليها زجاج عاكس، وطقم من المقاعد حول طاولة صغيرة! كلها مصممة من الخشب الفاخر، بل كانت الأغطية من الحرير الناعم! أما عن الألوان فقد كانت متنوعة ومتناسقة، يغلب عليها اللون البرتقالي إن صحّ التعبير. وكان للغرفة نافذة كبيرة، تطل على أشجار ونوافير، إنها الصالة الرئيسية، حديقة المنزل.

فتح لي الشاب الخزانة، فكانت تحوي بعض الثياب، كانت أجمل من كل الثياب التي ارتديتها في حياتي علماً أنها كانت ثياب موظفات.

كانت الثياب من كل الألوان، شيء ببطانة مزركشة، وأخرى بنطال واسع عملي، والقمصان من كل الأشكال! كان يصعب علي حتى الاختيار!

حمل الشاب الثوب الأزرق، وقدمه لي، أخذته من يده بسرور، فأشار إلى الباب المرافق للغرفة وفتحه، فإذا به حمام جميل، بلاطه لماع، ويسوده اللون الوردي، بل كانت هناك ورود أيضاً، حوض الاستحمام كان كبيراً، يرسم حلقة في المنتصف، ويغطيه غطاء شمعي.

فهمت أنه يطلب مني أن أغير ثيابي، وأن أغتسل حتى أصبح نظيفة، وأستطيع مقابلة صاحب المنزل.

غادر الشاب الغرفة، وفعلت ما طلب مني بكل سرور، واغتسلت، وارتديت الثوب الأزرق، والحذاء الأزرق، ونظرت إلى نفسي في المرآة وكأنني أرى نفسي لأول مرة! لم أكن أعلم أنني نحيفة إلى هذه الدرجة، ولم أكن أعلم أن بشرتي صافية دون تلك البقع التي كانت تلوثها طول اليوم، وشعري كان طويلاً بني اللون، ولكنه لم يكن

منتظماً أو صحياً، فلم أقم بقصه أو العناية به منذ زمن.

حدقت في عينيّ، إنهـا تلمـع بلـون عـسلي، مـن الجميـل أنهـما تلمعان بعد كل هذا العنـاء، مـن المؤكـد أن إضـاءة الغرفـة الجيـدة هـي السبب.

نظرت إلى دولاب تصفيف الشعر، وفتحت أول درج فيه، هنـاك أمشاط من مختلف الأشكال، هل كل هـذا لـي؟ ولكـنني هـززت رأسـي أقنع نفسي أنني لست موظفة بعد، وكوني في هذه الغرفة لا يعني أيضاً أنـها سـتكون غـرفتي، يجـب أن أسـتيقظ مـن هـذه الأحـلام الورديـة، ولكنني نظرت إلى شعري، إنه بحاجة إلى تصفيف، حدقت في الأمـشاط فترة ثم إلى شعري، إلى أن قررت أن صـاحب المنـزل يجـب أن يقـابلني بهيئة جيدة، علـي أن أصـفف شـعري، فأخرجـت مـشطاً مـن الـدرج، وحملته بعناية، ومسحت به على شعري، فـشعرت بـه وكـأن والـدتي تربت على شعري وأنا صغيرة! فبـدأت عـيني تـدمع، لمـاذا وصـلت إلى هذه الحال؟

فُـتح البـاب بهـدوء، فمـسحت الـدموع عـن عـيني بـسرعة،بل ووضعت المشط في الدرج ونظرت إلى من علـى البـاب، فـإذا بـه الـشاب، أظن أنـه كان قد طرق قبل أن يدخل، ولكن ما الفائدة؟

هذه المرة بات الشاب أكثـر هـدوءاً، ولكنـه لم يكـن بـارداً، بـل كانت في عينيه نظرات إعجـاب بمـا رأى، أجـل فقـد نـسيت أنـني قـد تغيرت، وأنني أرتدي الآن ثياباً أنيقة ونظيفة! بل وقد تغيرت ملامح وجهي بعض الشيء أيضاً.

أشار لي الشاب أن أنهي تصفيف شعري، ثم أحـضر إلى الغرفـة التالية على اليمين، فأشرت إليه أنني فهمت ما يقصد، فغادر الغرفـة وأغلق البـاب خلفـه، فأخرجـت المـشط مـن الـدرج، وتابعـت تـصفيف شعري، أستمتع به قدر الإمكان، فقـد لا أسـتطيع تـصفيفه مـرة ثانيـة بعد فترة.

رفعت شعري بربطة جميلة كانت في الدرج الثاني، فقد تجرأت وفتحـت الـدرج بعـد أن بعثـت فيّ عيـون الـشاب الاطمئنـان لفعـل مـا يناسبني، وخرجت من الغرفة آملة أن أعود إليها كـثيراً، وذهبـت إلى الغرفة التي أشار إليها الشاب، وطرقت الباب وفتحته.

كانت الغرفة عبارة عن صالة جميلة، أصغر من الصالة الرئيسية للمنزل، ولكنها ماتزال تتسع لموقد كبير، ومقاعد فخمة، و... بيانو!

كانت هذه أول مرة أرى بيانو فيها بهذا القرب! لطالمـا سمعـت بعض المقطوعات، ولكن ليس مباشرة، كان كبيراً وجذاباً، كان سـطحه

يلمع، بل يعكس السقف عليه! إنه يحظى بعناية كبيرة.

المقاعد كانت مزركشة بالألوان المتنوعة، يغلب عليها اللون الأخضر والأصفر، والسجاد كان بلون برتقالي باهت، بينما كان البلاط فضياً لّماعاً، والستائر مثقلة بالقلائد الشفافة، الموقد مصنوع من الطوب الأحمر، طرازه جميل وقديم، وقد كان مُوقداً.

أما من في الغرفة، فقد كان الشاب ذاته، يجلس على مقعد، يضع قدماً فوق الأخرى، ويقرأ كتاباً. كان مستغرقاً في القراءة لدرجة ظننت فيها أنه لن ينتبه إليّ، فسنحت لي الفرصة كي أدقق في هيئته أكثر، إنه أنيق، يرتدي ثياباً بنفسجية وربطة عنق، حذاؤه أبيض، وقميصه كذلك.

نظر إلي، فتوقفت عن التحديق به، وسندت ظهري، فأغلق الكتاب بهدوء، ووضعه على الطاولة أمامه بعناية، لم أكن لأنتبه إلى الكتاب لولا العناية التي كان يبديها في التعامل معه، إنه كتاب قديم، أوراقه صفراء، وغلافه من جلد! لا توجد صورة غير رقم مكتوب عليه بلون أصفر واضح "٢٥"! ربما كان اسم الكتاب أو رقم الجزء منه! أي نوع من الكتب يحوي أكثر من عشرين جزءاً! بل هل هذا هو الجزء الأخير؟

نهض الشاب واقترب مني، فبقيت واقفة مكاني أعلم أنه سيشير إلي لأجلس وأنتظر المالك، ولكنه توقف أمامي وبدأ يشير بإشارات أخرى غير ما توقعت! لم أفهم في البداية ما يعني، ولكنني بعد أن أزحت فكرة انتظار المالك من ذهني فهمت ما يقول، إنه يشير إلى نفسه، وإلى المنزل، ثم إلى نفسه، وإلى المنزل... أخيراً قلت بلهجة المتسائلة: "أنت تسكن في المنزل؟"

توقف عن التأشير قليلاً، شعرت أني لم أفهم ما يقول، لم يكن الوضع جيداً حيث أنني كنت أتوق للعمل هنا، فلابد أن أبذل جهداً أكبر في فهم ما يرمي إليه! فقلت مستدركة: "المنزل لك؟" فابتسم بهدوء وأشار برأسه بالإيجاب! ظننت للحظة أن ما قلته كان غبياً، ولكنه كان سعيداً، هذا يعني أنني قلت ما هو صواب، ولكنني ما زلت أشك بذلك.

كان من الأسهل على كلينا أن أسأل أنا أسئلة موجهة يستطيع أن يجيب بها بالإيجاب أو النفي، فقلت: "هل والدك هنا؟" فأشار بالنفي، فقلت: "والدتك؟" فأشار بالنفي! عندها قلت: "هل هناك أحد في المنزل غيرنا؟" فأشار بالإيجاب، نوعاً ما كنت سأكون قلقة إذا ما قال لا! ولكنني قلت: "خدم؟" فأشار بالنفي، فعلمت أنهم من العائلة،

فقلت: "أين هم؟" ثم شعرت أنني أقود الحديث بشكل كأنني المالك وهو الموظف! فسكتُّ بسرعة أتدارك الوضع، ولكنه أشار أنهم موزعون في المنزل.

المنزل كان كبيراً، كنت سأشعر بغرابة الإجابة إذا لم أكن قد عاينت المنزل بأم عيني! التقاء ثلاثة أفراد أو حتى أربعة في هذا المنزل شبه مستحيل! ولكن ليس هذا مهماً الآن، المهم ماذا سأفعل أنا.

لم أشأ أن أسأل أكثر، ولكن الشاب أراحني من السؤال حيث أشار إلي أن أتبعه في الغرفة، فعلت فاقترب من الطاولة، ومسح بإصبعه عليها، ففهمت أنه يقصد الغبار، رغم أن إصبعه مايزال نظيفاً تماماً، ثم أشار بيده كأنه يمسح، ففهمت أنه يقصد مسح الغبار، فقلت: "تريدني أن أمسح الغبار في المنزل" فأشار بالإيجاب، ففتحت فمي لأقول أنني سأفعل بكل تأكيد، ولكنه قاطعني قبل أن أفعل، حيث رفع إصبعه أمام عيني بإشارة تدل على الشرط، فحدقت به بصمت، ثم أشار إلى ملعقة كانت على الطاولة، فرفعها ثم أشار إلي بالنفي، فقلت: "لا تريدني أن أحرك أي شيء من مكانه" فأشار بالإيجاب، ولكن وجهه هذه المرة لم يكن راضياً، كان جاداً فيما يقول، وظل يحدق بي، فقلت: "أبداً" فأشار بالإيجاب، فقلت: "كما تريد، لا

تقلـق بهـذا الـشأن" ثـم أشـار إلى الأرض، والـستائر، وبعـض الزوايـا يريدني أن أنظفها، فقلت له: "أنا أجيد التنظيف، ليس عليك أن تقلـق بشأن ذلك" ثم أشار بيده في الهواء يقصد كـل المنـزل، لم أكـن أريـد أن أستوعب هذه الحركة، فكنـت آملـة أن يعيـنني علـى بعـض الغـرف، ويقوم آخر بتنظيـف البـاقي! حيـث يـستحيل علـي أن أقـوم بتنظيـف المنزل كله! ولكنني تجرأت وسألت بلهجـة الـضعيف: "كـل المنـزل؟" فأشار بالإيجاب.

لم أكن أجرؤ على الرفض حتى وإن كنت أعلم أن هذا مـستحيل! ولكن المستحيل أكثر أن أترك هذا المنزل وأنام في الخارج، لقـد خطـوت أكثر من خطوة في الداخل، وبات من المستحيل أن أتراجع حتى لو طُلب مني أن أشنق نفسي هنا! ولكن الشاب نظر إلي وأشار بيـده يعـني أنـه يفهم ما يجول في خاطري، وأن الأمر ليس مهماً، ولكنه أشار ثانية إلى المنزل كله، ثم أشار بما معناه على فترات.

اطمأن قلبي أن الـشاب لـيس متعجرفـاً أو متهتكـاً، إنـه يـتفهم الأمر ويلطف الوضع، ربما كان انطباعي الأول عنه أنـه بـارد الحـس، وظننت أنـه لـن ينظـر في وجهـي ثانيـة مـدى الحيـاة، ولكـنني كنـت مخطئة، إنه مهتم بأمري.

جلس الشاب على المقعد الذي كان يجلس عليه قبل أن أدخل، وحمل كتابه ثم نظر إلي، ركزت كي يفهم أنني أتابع ما يشير إلي به، فأشار إلى الكتاب، ثم أشار بإصبعه أمام فمه يعني الهدوء، فقلت: "لن أقاطعك أبداً ما دمت تقرأ" فأشار بالإيجاب، ثم رفع كتابه وفتحه وبدأ يقرأ.

ساد الصمت المكان، إنه للتو أخبرني ألا أقاطعه عندما يقرأ، وهو الآن يقرأ! لم أعرف إذا ما كان من المفترض أن أقاطعه كي أعلم أين أذهب وماذا أفعل! ولكن للحظة قد خطر لي أنه يختبرني، وأنه يريد أن يرى إذا ما كنت سأزعجه أم لا، ولكنني حسمت أمري بسرعة حيث لم يكن هناك ما أريد أن أسأله بعد! علي تنظيف المنزل، علي ألا أحرك شيئاً من مكانه، علي أن ألتزم الهدوء، وأظن أن غرفة النوم تلك هي غرفتي! لم يتبق شيء أناقش فيه.

انحنيت لتحيته، دون أن أنطق بأية كلمة، ثم غادرت الحجرة، وأغلقت الباب خلفي بكل هدوء.

يمين، يمين، يمين، يسار، يمين، يسار! كان هذا الأسلوب الوحيد الذي أستطيع فيه أن أصل إلى المطبخ، فقد كانت ممرات المنزل أشبه بالدهاليز، وكل الأبواب متشابهة، المكان الوحيد الذي كان مختلفاً هو الصالة الرئيسية، حيث منافذها مفتوحة دون أبواب كحديقة عامة، أما الغرف الأخرى فقد كان يصعب تمييزها.

رغم أنني وجدت المطبخ إلا أنه كان فارغاً، لا توجد فيه قطعة طعام واحدة، بل لم تكن هناك ثلاجة أو حتى موقد للطهو! كان أشبه بمخزن غير مستخدم، ولم يكن نظيفاً كالغرف الأخرى، كان من الواضح أن أحداً لا يدخله.

توقعت أن المنزل يحوي مطبخاً آخر في مكان ما لم أصل إليه بعد، ولكن كان هذا المطبخ يحوي ما أحتاج إليه الآن، بضع مناشف، ومكنسة، ومنظفات. حملت الأدوات معي وبدأت أنظف أقرب غرفة إلى غرفتي، والتي عينتها لأهتدي إلى ممرات المنزل.

باشرت التنظيف، استغرق ذلك مني وقتاً وجهداً كبيرين، وباتت الساعة تقارب السادسة مساء، ولا أخفي سراً أنني بت أتضور

جوعاً، بل كنت جائعة مذ حضرت، وضعت أدوات التنظيف جنباً وذهبت إلى الغرفة التي كان يجلس فيها الشاب لأسأله عن الطعام، أو ماذا يريد أن يأكل، أو متى يأكل بالعادة.

وقفت أمام الباب الذي كان مقفلاً، ورفعت يدي لأطرق، ولكنني تذكرت تنبيهه لي ألا أزعجه أثناء القراءة، ولكن هل انتهى من القراءة أم لا؟ بل هل مايزال في هذه الغرفة منذ الصباح؟

كان أسهل حل أن أنظر من فوهة المفتاح إلى الغرفة، فعلت بهدوء حتى لا ينزعج لتجسسي، ولكنني كنت مندهشة عندما رأيته جالساً مكانه على نفس المقعد، يقرأ في ذات الكتاب كما تركته! إنه لم يحرك ساكناً منذ ساعات! ومع ذلك لاحظت علامات الراحة والانسجام، إنه مستمتع بالقراءة، جميل أن تكون لديه هواية مميزة كهذه، شعرت أنني سأحسده، لربما كان هناك مكتبة كبيرة في المنزل أستطيع أن أجد فيها كتباً جميلة أقضي فيها وقتاً مميزاً، ولكن... هل فعلاً سيكون لدي الوقت لذلك؟ فأنا بالكاد أنهيت تنظيف غرفتين أخذتا مني الوقت الكثير.

رفعت ظهري أفكر، إنه يقرأ إذن لا فائدة من إزعاجه، وربما ينزعج مني إذا أكلت شيئاً دون علمه، بل لا يوجد شيء يؤكل وصلت

إليه عيني في هذا المنزل بعد! قـررت أن أعـاود العمـل بانتظـار إشـارة منه، وتركت الباب مفتوحاً حتى يعلم أين أنا.

باتت الـساعة العاشـرة لـيلاً، ربمـا لم ينتبـه الـشاب إلى البـاب المفتوح، بل ربما سلك في اتجاه آخر من الممر. وضـعت أدوات التنظيـف منهكة، وذهبت إلى الصالة التي كـان يقـرأ فيهـا، ونظـرت مـن فوهـة المفتاح، إنه مايزال على حاله!

بات ذلك كثيراً! ألا يأكل؟ ألا ينام؟ ألا يـدرس؟ ألا يفعـل شـيئاً سوى القراءة! ولكنه لحظتها أغلق الكتاب بهدوء وعنايـة، ومـع ذلـك جفلت، فقـد بـات كالتمثـال أمـامي فـترة، لم أتوقـع أن يتحـرك علـى الإطلاق! وابتعدت عن الباب، وعـدت مـسرعة إلى الغرفـة الـتي كنـت أنظفها، وأمسكت الممسحة أمثل أنني مستغرقة في العمل، حتى إذا مـا مر علي علم أنني مجتهدة.

استغرق ذلك وقتاً، ولكنه وصل أخيراً، مـر مـن جانـب الغرفـة دون أن يدخل، بل دون أن ينظر حتى! توقفت عن التنظيف وتبعته إلى الممر، كنت متأكدة أنه يعلم أنني خلفه ولكنه لم يقل شـيئاً، بـل تـابع سيره في الممرات، ممر تلو ممر، إلى أن وصل الصالة الرئيـسية، ثـم إلى الباب الرئيسي الذي كنت دخلت منه في البداية.

فتح الباب، فإذا بطبق كبير مغطى بلحاف قد وُضع على العتبة! حاولت أن أنظر فيه، ولكنه مربوط بإحكام، حمل الشاب الطبق ودخل به المنزل وترك الباب خلفه مفتوحاً، أقفلت الباب وتبعته، فسار في ممرات لم أكن قد سرت بها من قبل، ثم دخل غرفة لم أكن حفظت مكانها، ودخلت خلفه، فإذا بها قاعة لتناول الطعام، فيها طاولة طويلة بعشر كراس تحوطها، وثلاث مزهريات فيها أزهار ملونة جميلة، بالإضافة إلى الستائر الفخمة التي اعتدت على رؤيتها، ولكن كان هناك ما يميز الغرفة عن غيرها، ألا وهو كثرة المرايا، فقد كانت المرايا تحوط المكان، وكان للغرفة باب جانبي، يؤدي إلى غرفة للاغتسال بعد الطعام.

وضع الشاب الطبق على طرف الطاولة، وجلس على كرسي هناك، فتبعته ووقفت إلى جانبه أنتظره حتى يفتح الطبق لأرى ما فيه، وكنت قد بدأت أشم رائحة زكية، حيث بت قريبة أكثر مما سبق، وبدأت عضلات معدتي تنقبض، وغدد فمي تتنشط، وشعرت بالوقت الطويل الذي استغرقه الشاب في كشف محتويات الطبق!

أخيراً رأيت ما كنت أتمنى أن أراه، إنه الطعام، لحوم وأجبان وألبان، وفواكه وخضار، وخبز وأرز! لم يخطر ببالي شيء آخر يمكن

ألا يكون موجوداً! فقد كان هناك طبق من الحلوى أيضاً، وشيء من البقوليات، وإبريق يحوي عصيراً يبدو شهياً.

نظر الشاب إلي فتمالكت نفسي، وأقلعت عن التحديق في الطعام، وأجبرت عيوني أن تنظر إلى عيون الشاب، الذي أشار إلى أطباق فارغة على رف في زاوية الغرفة، ففهمت من فوري أنه علي أن أحضر أطباقاً، ثم أشار بثلاث أصابع إلي، ففهمت أنه يريد ثلاثة.

ذهبت إلى هناك أجلب ثلاثة أطباق، وثلاث كؤوس، وثلاث مناشف، وثلاثة من كل ما وجدت هناك حتى لا أضطر للعودة ثانية وترك المشهد الجميل، بل الرائحة الزكية التي تفوح من الطعام.

عدت إلى الشاب، ووزعت ما جلبت على ثلاثة أشخاص، الشاب على طرف الطاولة، واثنين إلى جانبه.

بقيت مكاني أحاول ألا أظهر معالم الجوع والاشتهاء على وجهي، ولكن يبدو أنني لم أنجح، فقد نظر الشاب إلي بذات العيون الهادئة، ثم ابتسم، وأشار إلى كرسي أجلس عليه.

لم يكن الكرسي بجمال الكرسي الذي يجلس عليه الشاب، فقد كان الشاب يجلس على طرف الطاولة كرئيس المجلس، وجلست أنا على كرسي إلى جانبه، يشبه بقية الكراسي، ولكنه كان طبعاً جميلاً،

بل وقريباً أيضاً من الشاب.

عندها بدأ الشاب يسكب لنفسه ما اشتهى، وبقيت جالسة أضع يدي بين قدمي، وأحاول ألا أنظر مباشرة إلى الطعام، إلى أن أنهى الشاب سكب ما يحلو له، نظر إلي وأشار إلى الطعام أن أسكب لنفسي أخيراً.

ربما كان علي أن أفكر بهذا الأمر من قبل، أنا موظفة هنا وليس علي أن آكل على نفس المائدة التي يأكل عليها الشاب، بل كان علي أن آكل في زاوية أخرى بل ربما في غرفة بعيدة! ولكن... أظن أن الشاب لم يتوقع مني أن أنهض عن الكرسي بعد أن طلب مني أن أجلس، بل أن أسكب من الأطباق أيضاً، كان هذا لطفاً كبيراً منه.

سكبت القليل خجلاً، ولكنني تمنيت لو لم يكن الشاب في الغرفة، فأهجم على المائدة، وأنقض عليها. ولكنني بقيت أحافظ على هدوئي، أو على ما تبقى منه على الأقل.

كان الشاب يأكل بهدوء، يسكب الحساء ويفرغه في فمه بانزلاقة خفيفة، كأنه يتذوق كل قطرة فيه، إلا أنني أعلم أنه شارد الذهن، وآخر ما يفكر فيه هو ما أمامه من طعام! على عكس ما كنت عليه، فقد كان العالم بأسره يقع على هذه الطاولة، فلم يكن في ذهني ما

هو أبعد منها على الإطلاق!

بعد أن بدأت أشبع، وبدأت معدتي تشعر بارتياح لم تكن قد شعرت به من قبل، بدأت أنظر إلى الطبق الثالث الفارغ على الطاولة، فنظرت إلى الشاب وسألته: "لمن الطبق الثالث؟" ولكن الشاب وضع إصبعه الصغير على أذنه القريبة مني، ففهمت أن صوتي كان مرتفعاً، فخجلت واعتذرت بسرعة، أحرص على إبقاء صوتي منخفضاً قدر الإمكان.

كان يصعب علي السيطرة على علوّ صوتي، فأنا لا أسمع، ولا أستطيع تقدير صوتي بنفسي! فغالباً ما يكون صوتي مرتفعاً حيث أشعر أن الناس لا يسمعون مثلي، ولكنني أعلم أن هذا غير صحيح، وأحاول أن أخفض من صوتي قدر المستطاع أعجب أن الناس يسمعون ما أقول!

بقيت صامتة من الخجل، ولكن الشاب لم يجب! فلم أجرؤ على السؤال ثانية، ولكنني لم أر أحداً في المنزل غير الشاب طول اليوم، بل لم أقابل صاحب المنزل، فكيف أعمل فيه؟ بدأت أتساءل وأتساءل، ولكن دائماً كنت أوقف نفسي، فقد كان كل ما أريد غرفة بسرير هانئ، وطعاماً شهياً، وقد حصلت عليهما، فماذا أريد بعد؟

نهض الشاب من على المائدة تاركاً الطعام كما هو، فنهضت من فوري فأشار لي أن أتابع تناول الطعام، ثم أنظف المكان، وترك الغرفة. بصراحة شعرت أنني بت حرة الآن، أستطيع أن آكل ما أشاء كيف أشاء، ولكنني نظرت إلى الطبق الفارغ، لم يحضر أحد، هل علي أن أنظف المكان قبل أن يحضر صاحب الطبق لتناول الطعام؟ ألا يكون منزعجاً إذا ما حضر ورأى المائدة فارغة؟ ولكن الشاب طلب إلي أن أنظف المكان بعد أن أنتهي أنا من تناول الطعام!

قررت أن آكل وآكل إلى أن تمتلئ معدتي عن آخرها، وإذا لم يحضر أحدهم إلى ذلك الوقت فسأقوم بتنظيف المائدة كما طلب الشاب مني.

ملأت معدتي عن آخرها، حتى بات النهوض والعمل أمراً شاقاً، ولم يحضر أحد لتناول الطعام، فنظفت المكان، وأعدت الأطباق إلى مكانها، وكابرت على ثقل معدتي لأصل إلى الفراش في الغرفة التي كان من المفترض أن تكون غرفتي، ووضعت رأسي على الفراش، معطية إياها حرية الاسترخاء كما تشاء.

الفصل الرابع

لمع الضوء على عيني، ففتحتهما، فإذا بي قد استغرقت في نوم دام عشر ساعات، نهضت فزعة لأبدأ التنظيف، يجب ألا أترك انطباعاً سيئاً عني، فألقى في الشارع!

غسلت وجهي، واستبدلت ثيابي، وربطت شعري، وبدأت يومي الثاني في العمل بجد في تنظيف المنزل، كنت قد حفظت الغرف التي نظفتها بالإشارات إلى اليمين وإلى اليسار، فكان دور الحجرة التالية.

فتحت باب الحجرة فإذا بها غرفة نوم، كان الفراش مطوياً بشكل علمت أن أحدهم كان نائماً فيه، الغرفة جميلة، يسودها اللون الأخضر الهادئ، وهي بكل تأكيد أجمل من غرفتي، ربما كان الشاب نائماً هنا، علي أن أكون حريصة على تنظيفها جيداً دون استبدال مكان أي قطعة فيها.

باشرت التنظيف، وكنت أنقل المياه إلى دورة مياه بعيدة بعض الشيء عن الغرفة، فقابلت الشاب في الممر، ألقيت عليه التحية محاولة أن أبقي صوتي ضمن المستوى المطلوب، فأشار إلي بيده، ولكنه كان

ينظر إلى ورقة في يده الأخرى، وتحت الورقة أراه يلف بعض النقود! مر عني فاستوقفته قائلة: "عفواً!" فتوقف، والتفت إلي، فقلت: "الغرفة في آخر الممر، هل هي غرفة نومك؟"

فأشار بالإيجاب، فقلت: "أنا أقوم بتنظيفها الآن، إذا ما كنت متجهاً إليها، أستطيع أن أنظفها في وقـ..." لم أكمل جملتي حتى أشار بالنفي وتابع سيره مبتعداً عني.

أعلم أن الشاب لم يكن أليفاً، ولكنني أعلم على الأقل أنه ليس سيئاً، فقد استقبلني على عكس الكثير من الناس، ولكنني لا أنكر أنني كلما نظرت إليه شعرت أنني أنظر في قصة خيالية لعائلة الدراكيولا! لطالما ضحكت على ما أقول، ولكنني في يوم سادني فضول أن أرى انعكاس خياله على أي مرآة، فكان، فارتاح بالي.

استغرق التنظيف فترة، وعندما انتهيت قررت أن ألقي نظرة عامة على المنزل، حيث كان عدد الغرف كبيراً، وأجهل تماماً ما يمكن أن يكون فيها!

تجولت هنا وهناك، ولاحظت أن بعض الغرف أنظف من غيرها، حيث أن بعضها مستخدم أكثر من الأخرى، بل ربما كانت هناك غرف لم تطأها القدم منذ أكثر من عام!

ظننت أن المنزل يحـوي طابقـاً واحـداً، إلى أن صـدمت بالحقيقـة المرة أن المنزل يحوي درجاً إلى طابق آخر، ثـان بكـل تأكيـد، فلـم أكـن أريد أن أتخيل أن هناك طابقاً ثالثاً على الإطلاق.

خطر ببالي، ربما يعيش هذا الشاب في هذا الطابق، منعزلاً عـن بقية أفراد العائلة الذين يعيشون في الطوابق الأخرى، في هذه الحال إما أن أقابل سيد المنزل وأعمل لدى الجميع، وإما أن أظل مع الشاب، أنـام وآكل بهناء، لا أدري إلى متى، ولكن في هذه الأسابيع على الأقل.

مع أنني كنت قد حسمت أمـري أن أظـل في هـذا الطـابق، إلا أن الفضول دفعني لألقي ولو نظرة واحدة إلى ما في الطابق الثـاني، صـعدت الدرج بهدوء، إنه جميل ومطلي بلون أصفر، وعليه سجاد أحمر قـان، شعرت أن الملوك وحدهم يسيرون هنا!

وصـلت إلى الأعلـى، فكنـت في غرفـة مـدورة مليئـة بالأقفـاص! وهناك حمامة واحدة تقف بيبن يدي... الشاب نفسه!

بقيت واقفة مكاني أحدق به، بينما نظر الشاب إلـي، ثـم عـاود النظر إلى الحمامة وكأنه لم ير شيئاً، وربط ورقة مع نقود بخـيط رفيـع على رجل الحمامة، ثم رفعها لتطير من النافذة خارج المنزل.

كنت قد شاهدت شيئاً كهذا من قبـل، إنـه أسـلوب قـديم لبعـث

الرسائل، إنه يبعث برسالة ونقود إلى شخص ما، ربما يطلب منه شيئاً، ربما... يطلب طعامه بهذه الطريقة!

كان الشاب قد فرغ من عمله هنا، فسار باتجاهي، شعرت أنني ربما رأيت شيئاً لم يكن من المفترض أن أراه، أو على الأقل كان فضولي ليس في محله، ولكنه لم يأبه بالأمر على الإطلاق، بل أشار إلى الأقفاص يعني أن أقوم بتنظيفها أيضاً.

نزل الشاب إلى طابقه، أما أنا فقد سمحت لنفسي أن أدخل هذه الحجرة، إنها مدورة تماماً، والأقفاص تملؤها، مع أن الأقفاص فارغة إلا أنها كانت بحاجة إلى تنظيف كثير، أما ما كنت أعتبره طابقاً ثانياً فلم يكن موجوداً، كانت فقط هذه الغرفة، تمثل أعلى المنزل الذي تُربى فيه حمامات الاتصالات! حمداً لله أن الموضوع قد وقف على ذلك.

نزلت لأحضر بعض الماء، وأدوات التنظيف لأبدأ بالأقفاص، فمررت على الصالة التي كان يقرأ فيها الشاب، والتي تحوي البيانو، والتي بدأت أطلق عليها صالة البيانو حيث أنني لم أجد واحداً في أي غرفة أخرى، وكان الباب موصداً، فضولي جعلني ثانية أنظر من فوهة المفتاح لأرى من في الداخل، فكان الشاب يجلس ويقرأ، وإلى جانبه فنجان من الشاي، فكان نفس المنظر الذي شاهدته البارحة، وشيء في

نفسي كان يقول لي أنني سأعتاد على هذا المنظر.

رفعت رأسي عن الفوهة لأتابع عملي ولكن قبل ذلك كنت قد لاحظت شيئاً لم ألحظه من قبل في الغرفة، نظرت ثانية عبر فوهة المفتاح، فإذا بي أحدق في الطاولة أمام الشاب، أجل هناك فنجان من الشاي يحتسيه الشاب، ولكن كان هناك فنجان آخر! إنه مليء ولم يشرب منه أحد بعد، يبدو أن الشاب ينتظر شخصاً، وقد كنت بدأت أشك أنني سأرى شخصاً غير هذا الشاب في المنزل، إلا أن منظر فنجان الشاي جعلني أعيد التفكير.

قمت بالتنظيفات اللازمة، بعدها تجولت في غرف أخرى في المنزل، فلاحظت أنه لا يحوي أي تلفاز، أو راديو، أو حتى على مسجل صغير! لا يستطيع أحدهم الاتصال بالعالم الخارجي من هنا! كان أحدث ما في المنزل هو البيانو الوحيد.

بعد تجول في المنزل هنا وهناك، اقتنعت أن المنزل عبارة عن طابق وحيد، وأن العلية فيها الحمامات فقط، وكان هناك بوابة للأرضية، لم أفكر في النزول على الإطلاق، لابد أن المكان هناك سيكون أقل نظافة من هذا الطابق، لذلك سأقوم بتأجيله قليلاً.

كنت كلما مررت بصالة البيانو، نظرت من خلال فوهة المفتاح

لأرى الشاب، اعتدت على رؤيته يقرأ، لدرجة كنت أتعجب فيها إذا لم يكن هناك! في ساعة من اليوم حدث ذلك، ونظرت من الفوهة فلم يكن الشاب على الكرسي، رغم أن الكتاب كان هناك، وفنجانا الشاي، إلا أنني متأكدة أنني لا أراه! فتحت الباب ونظرت في الصالة، فإذا به يجلس على البيانو، يبدو أنه يعزف!

من الطبيعي أنني كان من المفترض أن أعرف ذلك من خلال السمع، ولكن بما أنني لا أسمع، لم أستطع أن أميز العزف من خارج الغرفة، ولكن منظر الشاب يجلس على البيانو، وظهره يقابلني، كان يدل على أنه يعزف، بل كانت يداه تتحركان يمينا وشمالاً على مفاتيح البيانو، بذلك تأكدت أنني أقف في غرفة تملؤها الموسيقى العذبة.

لطالما شعرت أنني أريد أن أستعيد سمعي من جديد، ولكن ليس كما تمنيته الآن، لم أشعر في حياتي بحسرة الحرمان من حاسة عظيمة كالسمع كهذه اللحظة! بل وقد بدأت عيناي تدمعان، هناك ما يفوتني، الكثير يفوتني!

أنهى الشاب العزف والتفت إلي، فلاحظ الدموع في عيني، ربما نسي لحظة أنني لا أسمع فظن أنني بكيت تماشياً مع أنغام الموسيقى،

ولكنه لابد تذكر، فوقف وبدأت أمسح دموعي خجلاً، ولكنه اقترب مني وناولني منديلاً من جيبه، فاستعملته في مسح دموعي، واعتذرت إليه مما جرى، ولكنه لم يقل شيئاً، بل جلس على كرسيه، وحدق في الكتاب على الطاولة.

كان الكتاب ذاته، أو كما تصورت، فقد كان الرقم على الكتاب مختلفاً هذه المرة، "٢٧" شككت إذا ما كان الرقم الماضي هو "٢٧" أيضاً أو أقل! ربما كان شيئاً مثل "٢٥" أو "٢٦"، وهذا يعني أن هذا هو الجزء السابع والعشرون! أي كتاب غريب هذا!

رفع الشاب فنجانه ليحتسي منه قليلاً، لم يكن الشاب قد طلب إلي مرة أن أسكب له الشاي بنفسي، ولم يكن قد طلب إلي حتى أن أنظف الفنجان بعد أن ينتهي منه، ولا أذكر أنني رأيت أحدهم مرة يحتسي الشاي من الفنجان الآخر مرة! كانت الغرابة تحوم في هذه الغرفة، بل كانت تحوم حول الشاب أينما ذهب، ولكن طالما كنت أنام على فراش ناعم، وآكل طعاماً شهياً، لم أكن أحتاج إلى معطيات أخرى.

الفصل الخامس

لم أكن أعرف أن هذا اليوم سيكون مميزاً في حياتي، فقد كان يوماً مماثلاً للأيام السابقة في هذا المنزل، إلا أنني نظفت الكثير من الغرف، ليس كلها، ولكنني قررت أن أتجرأ وأنزل إلى الطابق السفلي لأرى ما فيه، وكم هو الجهد الذي سأحتاجه في تنظيفه.

وقفت أمام الباب، كان الدرج إلى الأسفل مظلماً وملتوياً، والجدران من حجارة كما في المنازل القديمة، وضعت خطوتي الأولى على الدرج، ثم وضعت يدي على الحائط فلمست قطعة بلاستيكية هناك! كان من الغريب أن أجد شيئاً كهذا في درج من حجارة، ولكنني اكتشفت أنه مفتاح الضوء للدرج، كبسته فأنار المكان إلى الأسفل.

عجبت مما رأيت كثيراً، لم يكن الدرج كما تصورته، مخيفاً ومظلماً ومهترئاً! بل كان جميلاً، مفروشاً ببساط أحمر، على جوانبه خطوط صفراء برّاقة! وعلى الحائط تتدلى بعض الجواهر، وشمعدانات فاخرة تحمل مصابيح كهربائية بدلاً من الشموع! كان الضوء قوياً يشعرني بالاطمئنان لما سأجد في الأسفل، بل ربما سأجد أجمل وأهم غرفة في المنزل!

أكملت خطواتي، هذه المرة على البساط الأحمر الفاخر، وإحساس الفضول يدفعني للمتابعة أكثر فأكثر، ولم يكن خيار الصعود إلى الأعلى الآن وارداً البتة، فهناك سحر يسحبني، تاركة العالم الخارجي في الأعلى.

نزلت إلى حيث قادني الدرج، فكان باب زجاجي مزركش أمامي، وليس حولي شيء آخر، فكرت كيف يمكن أن يُفتح شيء كهذا، فمن الواضح أنه نظيف لدرجة لم يلمسه أحد فيها من قبل! ولكنني عرفت السر فور اقترابي منه، حيث فتح من فوره دون أن ألمسه، اعتدت أن أصادف أبواباً كهذه في الفنادق الفخمة، ولكن هذه أول مرة أجد فيها باباً كهذا في منزل!

دخلت الباب، فكان المكان مظلماً، لم أكن أرى سوى لافتة كبيرة في المنتصف، وقد سلّط عليها ضوء الدرج بعض الإنارة لأستطيع قراءتها، وقد كتب عليها: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه"

أعرف هذا الحديث جيداً، فقد تعلمته في المدرسة، عندما كنت أحضر حصص الثقافة الإسلامية، وكانت المدرسة دائماً تؤكد علينا بأهمية هذا الحديث، وأن به بناء المجتمع، فإذا حرص كل منا على

أن يتقن عمله لينال محبة الله، فإن الدنيا ستكون على حال أفضل بكل تأكيد، ولكن للأسف، علّمتني الحياة أن الناس يسلكون الطريق الأسهل للحصول على المال، فبات العمل للمال، لا لله!

أما الآن فقد كان علي أن أجد مصباح هذه الغرفة، أو الطابق حيث لم أكن متأكدة بعد! نظرت حولي، وحاولت الاعتماد على النور الذي يضفيه الدرج على الغرفة، فوجدت مفتاح المصباح إلى جانب الباب، وقد كان مغطى بغلاف بلاستيكي! لم أستطع فتح الغلاف، بل لم أحاول أن أشده بقوة خشية أن أتسبب في كسره، ولكنني لاحظت حبلاً يتدلى من أسفل الغلاف، إنه موصول بأسلوب غريب بالمفتاح، شددت الحبل بخفة إلى الأسفل فأنار المكان.

التفت لأتفحص المكان، كانت غرفة تبلغ أربعة أمتار قطراً، دائرية الشكل، وسطها رفوف دائرية أيضاً، وفي المحيط ستائر يبدو أنها تغطي شيئاً! اقتربت من الرفوف، فإذا بها مليئة بالكتب عن آخرها، مددت يدي وسحبت كتاباً بطريقة عشوائية، فإذا به كتاب بأوراق صفراء قديمة، وغلاف لا يوجد عليه سوى الرقم "١٤".

بات هذا النوع من الكتب مألوفاً إلي في هذا المنزل، ولم أكن قد رأيت مثله في الخارج في حياتي، ولكنني لم أندهش عندما وجدته

هنا، بل كنت متأكدة أن هذا هو مخبأ الكتب التي يقرؤها الشاب طـول اليوم، وهنا كان قد رتب الأجـزاء كلـها بالتسلـسل الرقمـي، ولكـن... يبدو أن الأجزاء ستجتاز السبعة وعشرين جزءاً! بل ستجتاز الـثلاثين أو الأربعين! لا أدري، فلم أكـن أعـرف أسـلوب توزيعهـا بعـد، فهـي موزعة على شكل حلقة كاملة، ليس لها بداية أو نـهاية!

أعدت الكتاب إلى مكانـه، ثـم باشـرت في تفحـص المكـان أكثـر، كانت الستائر أثقل من أن أرفعها فأشـاهد مـا قـد وضـع خلفهـا، ربمـا كانت نوافذ الغرفة، ولكنني أشك في ذلك، حيث كنت قد سـرت حـول المنزل فيما سبق، ولم يكن هناك دليل علـى أي نوافـذ لأي طـابق سـوى الرئيسي، إذن هناك ما هو مخبأ هنا، وهو مخبأ بعناية دون شك!

تجولت في الغرفة، لـست أدري إذا كـان علـي ألا أفعـل، بـل ألا أحضر أساساً إلى هنا، فقد كان الشاب مهتمـاً بالكتـب كـثيراً، ففكـرت أنـه ربما يغضب إذا وجـدني هنـا! ولكـنني لا أسـتطيع الـصعود بعـد، ليس الآن وقد أصبحت هنا، وحولي الكثير لأرى.

أخيراً لاحظت حبلاً يتدلى إلى جانب اللافتـة الـتي كتـب عليهـا الحديث، كما في المصباح عرفت أنه علـي أن أسـحب الحبـل، وفعلـت، فارتفعت الستائر حول الغرفة لتكشف ما كانت تخبئ.

كنت قد عبرت عن دهشتي في مراحل مختلفة من حياتي، وفي هذا المنزل بالذات أكثر من أي شيء آخر، ولكن ليس كدهشتي لما رأيت الآن، فهي لا توصف، فلم أكن أتصور أن شيئاً كهذا هو ما سيكون مخبأً خلف الستائر! إنها لوحات! ليست لوحات لرسام مشهور، أو فنان يحب الطبيعة، أو حتى لمبان مشهورة يحب أي رسام أن يتلذذ بها، بل كانت لوحات لفتاة صغيرة، لم أكن قد رأيت أجمل منها من قبل، كل اللوحات تحوي صورتها، بشعرها الذهبي، وشفتها الصغيرة الحمراء، وعيونها المتلئلئة بالزرقة، وفساتينها المزركشة.

اقتربت من إحدى اللوحات، إنها لوحة زيتية متقنة، تكاد الفتاة تنطق فيها! لم أستطع أن أزيح ناظري عنها لحظة، فقد كانت وكأنها تتحدث إلي! وكأنها تريد أن تقول شيئاً، بل ربما تريد لأحد أن يسمع، وبما أنني لم أكن الشخص الذي يستطيع أن يسمع، فقد راودني إحساس أن هناك صوتاً يصدر منها بكل تأكيد.

شعرت بالأسى، ليتني استطعت سماعها، وسماع ما تريد أن تقول، ربما كنت متأكدة أنه خيالي الذي يحدثني بصوتها، ولكنني مازلت أشعر أنني إذا ما كنت أستطيع أن أسمع زقزقة الطيور في الصباح، فقد كنت سأسمع صوت الفتاة الذي سيكون أجمل بكل تأكيد.

لم يكن من السهل أن أزيح ناظري عن الفتاة في اللوحة، ولكنني فعلت لأنظر إليها في لوحات أخرى، إنها هناك في كل مكان، تارة قريبة وأخرى بعيدة، تارة سعيدة وأخرى حزينة، تارة تركض وأخرىتجلس! شعرت أنني بتّ أعرفها، فلم يكن هناك شعور أو انطباع يمكن أن يُرسم على وجه آدمي لم يكن ضمن اللوحات.

بعد التحديق في اللوحات التي كان عددها يقارب الأربعين، لاحظت أنني كنت أركز في الفتاة، ونسيت الخلفيات في اللوحة، ما إن فكرت بالأمر من هذا الاتجاه حتى لاحظت أنني فعلاً أعرف هذه الأماكن! إنه... هذا المنزل!

حاولت أن أنظر إلى معظم اللوحات، لم تكن هناك لوحة واحدة بخلفية تحوي أي حديقة أو منتزه أو حتى مدرسة! كلها كانت خلفيات بغرف مختلفة من هذا المنزل! حتى أنني كنت متأكدة أن الغرف التي أشاهدها على اللوحة والتي لم أميزها هي غرف لم أدخلها بعد.

فجأة انطفأ ضوء الدرج، نظرت حولي فلم يكن أحد هنا، كان مفتاح الضوء أعلى الدرج، فلم يكن من المفترض أن يكون أحدهم هنا، ولكن أن أُكتشف هنا كان شيئاً لا أحبّذه! فلم يصعب علي أن أدرك أن

هذه الحجرة هي الأهم في المنزل كله.

أطفأت نور الحجرة، وأنزلت الستائر، وصعدت على الدرج وهو مطفأ، لم يكن الوضع صعباً كما تخيلت، حيث أن الدرج مصمم بعناية تتناسق فيها كل عتبة مع جارتها.

وصلت إلى الطابق الرئيسي، وتلفتت حولي لأبحث عمن أطفأ النور، ولكن أحداً لم يكن في الجوار، كان ذلك جيداً، فأسرعت إلى غرفة أبدأ فيها التنظيف وكأن شيئاً لم يكن.

الفصل السادس

لم تزل خيالات الغرفة في ذاكرتي، فكنت حين أنظف هنا وهناك أتخيل الفتاة الصغيرة تجلس أو تلعب، كما لمحت في بعض الصور التي ظلت عالقة في مخيلتي، بل باتت بعض الأشياء مرتبطة باللوحات بشكل غريب، النوافذ، المقاعد، حتى الكؤوس والسكاكين، كلها كانت في اللوحات.

لم تكن لحظات تكفي للتمعن في اللوحات، فقد كن كثر، وكنت قلقة مما وجدت، ولطالما فكرت في أن أنزل ثانية بل وثالثة لأشاهد اللوحات، وأغرق في سحر جمالها! كما فكرت أنه إذا شاهدني أحدهم هناك مرة فسأدّعي أنها أول مرة، أو على الأقل قد لا أضطر للكذب، وأقول أنني لم أعرف أن النزول هنا شيء ممنوع! رغم أنني أشعر بذلك.

أنهيت تنظيف غرفة واحدة اليوم، ولم أستطع أن أفكر في شيء آخر غير غرفة اللوحات، فقررت أن أنزل.

نزلت إلى الغرفة، وأنرت الإضاءة، ورفعت الستائر، هذه المرة أعرف ما أفعل، ثم اقتربت من اللوحات، وتمعّنت في كل واحدة منها

ما شئت، لست أدري كم من الوقت استغرق ذلك، فقد كان عدد اللوحات كبيراً، والتفاصيل في اللوحة مفصلة بعناية!

كلما نظرت في اللوحات أكثر تأكدت أنها رُسمت كلها في هذا المنزل، من الغريب أنه لا توجد لوحة تخلو من هذه الفتاة الصغيرة، والأغرب من ذلك أنه لا توجد لوحة تحوي شخصاً آخر غيرها! فمن الواضح أن الرسام اختارها عنواناً للوحاته بتفان.

ظننت عندما نظرت في آخر لوحة أنني اكتفيت، ولكن ما إن نظرت إلى اللوحة الأولى، شعرت برغبة في النظر إليها من جديد، بل إلى جميع اللوحات، فهناك الكثير مما لم أكن انتبهت إليه في المرة الأولى، بل ربما بات شعوري مختلفاً لكل لوحة! هناك سحر غريب فيها، بل وفي الفتاة أيضاً، بت أخشى أن أحلم بها الليلة تتحدث إلي، بل ما زلت أشك أنها تتحدث إلي الآن.

أجبرت نفسي على التوقف عن التحديق في أي لوحة، ولكن ما إن استدرت صادفتني المكتبة، تذكرت أن الشاب كان يقرأ فيها كل يوم، بل كل الوقت في كل يوم! ما سر هذه الكتب؟ وما سر كل هذه الأجزاء؟ كان من الطبيعي أن أستسلم لفضولي، وأن أسحب واحداً من هذه الكتب ، ولكنني ما إن فعلت حتى شعرت أنني اقترفت

جريمة! ماذا سيحل بي إن شاهدني أحدهم الآن؟ ما الذي سيحـصل إذا نزل الشاب إلى هنا وأنا أعلم أنه يفعـل! مـا سـيكون مـصيري إذا كنـت واقفة هكذا وكان أحدهم على باب الغرفة... ما إن فكرت بذلك ونظرت إلى الباب حتى شاهدت الشاب يقف هناك!

تمنيت أنني كنت قد أصـابتني أنـواع مـن الهلوسـات مـن كثـرة القلق والتفكير، ولكن هذا لم يكن، فقد اتجه الشاب إلـي حـاملاً كتابـاً من هذه الكتب في يده، إنه يقترب أكثـر، أكثـر، وأنـا مـا أزال أحمـل الكتاب بين يدي لا أستطيع أن أتحرك!

رفـع الـشاب يـده حـاملاً كتابـه وأعـاده إلى مكانـه علـى الـرف بعناية، تابعت كل حركة يقوم بها بعيوني التي كانت العضو الوحيـد القادر على الحراك في هذا الموقف. أنـزل الـشاب يـده الـتي باتـت الآن فارغة، ونظر إلى الكتاب في يدي، انتهى الأمر، وحان الوقت لدفع ثمن فضولي.

مد الـشاب يـده إلى الكتـاب في يـدي، أحسـست أنـني تراجعـت بعض الشيء، ولكنه أخذه بهدوء، ونظر إلى الـرقم علـى الغـلاف، ثـم تحرك في الغرفة قليلاً، وابتعد عني متراً أو أكثـر، وسـحب كتابـاً مـن على الرف في الأعلى، وبعد أن نظر إلى غلافـه أداره لأنظـر إليـه، لقـد

كتب عليه الرقم "١".

بقيت متسمرة مكاني لا أفهم ما يجـري، ولكـن الـشاب اقـترب مني من جديد، هذه المرة يعيد الكتاب الـذي كـان في يـدي إلى مكانـه، أظن أن رقمه كان "١٢" أو "١٣" لم أكـن أسـتطيع التمييـز، ثـم نـاولني الكتاب ذا الرقم "١"!

نظرت في الكتاب بين يدي، لا أصدق مـا يجـري، ولكـن الـشاب نظر إلي وأشار إلى مكان الكتاب على الرف، يؤكد علي أهمية أن أعيده إلى مكانه الصحيح، ولكن... بعد أن أقوم بقراءته!

تركني الشاب في الغرفة وصـعد حـاملاً كتابـاً كـان الجـزء الـذي وصل في قراءته، بينمـا بقيـت مكـاني دون حـراك، لا أصـدق أن شـيئاً كهذا قد حصل! لقد نجوت، بل إن الكتاب معي، وأسـتطيع أن أقـرأه! بل أستطيع أن أنزل إلى هنا متى أشاء، وأستطيع أن أقرأ!

نظرت في الكتاب الأول بين يدي، ثم بدأت الدموع تحجب عـني الرؤية الواضحة، لست أدري أكانت هـذه دمـوع القلـق الـتي حبـستها طول الوقت، أم كانت دموع الفرحة أنني سأقرأ كتاباً أسـتمتع بـه بعـد طول انقطاع عن القراءة!

ربما كنت في عصر قلت فيه القراءة بـين النـاس، ولكـن وضـعي

مختلـف، بمـا أنـني لا أسـتطيع أن أسمـع، ولا تـستهويني الأجهـزة الحديثة من تلفاز وراديو حيث كانت دائماً تشعرني بالنقص، فقد كان الكتاب صديقاً، هجرني بعد انقطاع المال، وسوء الحال، أمـا الآن فهـو إلى جانبي من جديد، أجمل صديق، في أجمل منزل، يالفرحتي.

أستغرب كيف هجر الناس القراءة، فليس هناك أجمل ولا أروع من أن تجلس قرب النافذة المطلة على حديقة هادئة وبعـض النـوافير، تحتسي فنجاناً من القهوة، وتجلس على أريكة مريحـة، تـضع رجـلاً فوق الأخرى، وتباشر رحلة الأحلام داخل الكتاب، وبصراحة كان هذا الكتاب الأفضل!

جلـست في غرفـة تطـل علـى الحديقـة وسـط المنـزل، وفتحـت الغلاف، وقرأت الصفحة الأولى "إلى من يهمه الأمر... ربمـا أكـون قـد توفيت منذ زمن عندما تباشر قراءة هـذا الكتـاب، فقـد تجـاوز عمـري الستين عاماً، ولكنني وضعت فيه كل جهدي، وكـل مـا أملـك مـن روح وعقل، ووضعته بين راحتيك كتاباً أثيراً عندي، أرجو أن تعـتني بـه، بل أرجو أن تقرأه بتأن، فهو كل ما أملك" شعرت أن الكاتـب يتحـدث عن الشاب، بل شعرت أنني سأصبح مثله كلما قـرأت في هـذه الكتـب! ولكنني ما كنت لأغلق الـصفحة طالمـا بـدأت، بـل كانـت هـذه الـسطور

كفيلة بـدفعي إلى المتابعـة أكثـر، فيبـدو أن للكاتـب إحـساساً مرهفـاً، وأسلوباً متقناً، ولن أندم أبداً على القراءة.

قلبت الصفحة، فلم يكن هناك مقدمات أخـرى، أو حتـى عنـوان للكتاب! ولكن بدأت الرواية بسطور تقول "انتقلـت عـائلتي إلى منـزل جديد، أعني بعائلتي والدي، الذي كان يعمـل تـاجراً كـبيراً في شـركة عالمية، وأنا، ابنته الوحيدة، التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها بعد"

علمت أن الكاتب هي كاتبة، بـل لمعـت في مخـيلتي اللوحـات في الطابق السفلي، ربما تكون هي نفسها الكاتبة! تابعت القراءة "توفيت والدتي أثناء ولادتـي، ولـست أدري إذا مـا كـان والـدي قـد تـزوج مـن أخرى، فلم أكـن أراه كـثيراً، كلمـا زارنـي في المنـزل كـان يتحـدث إلى الخـدم والمربيـات أكثـر مـني، يوصـيهم بالعنايـة بـي، ويعلمهـم واجباتهم، ويغادر، أحياناً ينسى حتى أن يودعني!

وصلنا المنزل الجديـد، وكعادتـه أوصـى الخـدم والمربيـات علـى المنزل، وأشار إلى وظائفهم بالتحديـد، والوحيـد الـذي لم يكـن الكـلام يعنيه هو أنا، فقد كنت فقط أقف وأنظـر إلى والـدي، أتمعـن في ملامـح وجهـه التي تغيرت منذ آخـر مـرة شـاهدته فيهـا، لقـد كـبر في الـسن أكثر، في شعره خصل بيضاء، ولكنه أزال اللحية التي كـان قـد اعتنـى

بها في آخر مرة، في لحظات ركب سيارته وغادر، بت أشك أنه يقول: مع السلامة. ولكنني لا أسمعه!

كانت هذه آخر مرة رأيت فيها والدي، بل ولم أسمع عن أي خبر يتعلق به، بل ولم أكن قد خرجت من هذا المنزل مرة منذ اللحظة التي طلب إلي فيها الموظفون الدخول بعد مغادرة والدي.

دخلت المنزل الذي سيصفه أي إنسان بسيط بمنزل الأحلام، بما أن المنزل لا يحوي حديقة خارجية، فقد كانت الحديقة داخلية، تحوي أشجاراً وأنهاراً، ما لم يلاحظه أحدهم هو شقوق صغيرة في أعلى السقف على كل زاوية من زوايا الصالة، زاوية واحدة خالية من الشقوق، لم يلحظ أحدهم ذلك على الإطلاق، ولكني كنت دائماً أجلس تحت الزاوية السليمة، بل كانت حجرتي تقع في الممر تحت هذه الزاوية بالتحديد، فلم أكن أحب الزوايا الأخرى"

توقفت عن القراءة لحظة، كان ما أقرؤه غريباً بعض الشيء، ولكنني لم أستطع إلا أن أقف وأحدق من النافذة إلى الحديقة، إنها تصف هذه الحديقة بلا شك، نظرت إلى السقف، كانتا زاويتين واضحتين من هنا، شعرت بغرابة الوضع عندما بدأت أحدق إذا ما كانت هناك شقوق فعلاً في السقف، ولكن لم يكن هناك شقوق في كلا

الزاويتين! تنهدت أشعر أن الكاتبة تكتب بغرابة أشياء لا يشاهدها أحدهم، ولكن وقبل أن ألتفت عبر النافذة، لاحظت لوناً مختلفاً في إحدى زوايا الصالة، اقتربت من النافذة أكثر، بل فتحتها لأتمكن من رؤية الزوايا بوضوح، هناك لون مختلف، كلما نظرت أكثر انتبهت إليه أكثر، إنه... شق صغير!

ركضت إلى الصالة، ووقفت في المنتصف أنظر إلى الزوايا، أحدق وأركز، هناك شقوق في هذه الزاوية، وتلك أيضاً! إنها شقوق صغيرة تكاد لا ترى! كيف لها أن تلاحظ شيئاً كهذا منذ أول مرة تدخل فيها الصالة! وأخيراً وجدت الزاوية الخالية من أي شق، ونظرت إلى الممر أمامي، إنه الممر المؤدي إلى غرفتها، كما وصفت.

مشيت في الممر، لم أكن قد دخلت غرفاً كثيرة فيه، فالمنزل عبارة عن متاهات، تؤدي إلى عدد كبير من الغرف المتشابهة! ولكنني بدأت بالأبواب القريبة، فتحت الباب تلو الآخر إلى أن وجدتها، إنها هي بلا شك، غرفة نومها.

ظننت أن غرفتي كانت فائقة الجمال، ولكنني شعرت الآن فقط أنني أنام في غرفة بسيطة، لا تليق إلا بعاملة في هذا المنزل، فقد كان الفرق واضحاً بين الغرفتين، بينما توجد مقاعد قليلة في غرفتي، توجد

في هذه الغرفة امتداد لغرفة جلوس كاملة، وبينما توجد خزائن قليلـة في غرفتي، توجد هنا العشرات، وبينمـا كـان سـريري مزدوجـاً، كـان حجم هذا السرير أكثر مـن الـضعف! هنـاك بوابـة لحمـام تـتلألأ كـل زاوية فيه بالجواهر، بالإضافة إلى حوض كـبير للـسباحة علـى زاويـة أخرى في الغرفة تطل على الصالة الرئيسية!

انحبست أنفاسي، حتى الشاب لم يكن يـستخدم هـذه الغرفـة! شعرت أن فيها شيئاً من القداسة احترامـاً للفتـاة الـتي سـكنتها، ولـن ألوم أحداً على ذلك، فالإحساس ذاته انتابني لحظة فتحـت البـاب، لا بل لحظة فتحت صفحات الكتاب، إنها هنا، حية في الغرفة.

نظرت إلى الكتاب في يدي، كنت أعلـم إذا مـا فتحـت الـصفحات ثانية فـإني لـن أعمـل علـى تنظيـف أي غرفـة اليـوم، قـررت أن يظـل الكتاب مغلقاً إلى أن أنهي تنظيف ثلاث أو أربـع غـرف، وفكـرت أيـن أضع الكتاب إلى ذلك الوقت، فكان آمـن مكـان هـو المكـان الـذي أخذتـه منه، الطابق السفلي.

نظفت غرفتين وحل المساء، تناولت العشاء إلى جانب الشاب كما فعلنا في أول يوم، بل بات ذلك روتيناً يومياً، لا إفطار ولا غـداء، فقـط نتعشى في نفس الموعـد بطبـق يوضـع أمـام البـاب، أدركـت أن الطـاهي

يستلم النقود عن طريق الحمام، فيبعث بالطعام في الموعد المطلوب، في المكان المطلوب! أسلوب غريب للانقطاع عن العالم!

لم يسألني الشاب عن الكتاب أثناء العشاء مطلقاً، بل لم ينظر إلي أبداً، ما إن أنهى طعامه حتى غادر الغرفة، فأنهيت طعامي، وحدقت في الطبق الثالث على الطاولة، والذي كان فارغاً كالعادة، وقد بت متأكدة أن أحداً لن يستخدمة أبداً، ولكن كان الشاب يطلبه دائماً، ويتركه على حاله، فأقوم بإعادته إلى مكانه بين الأطباق، ثم إلى الطاولة وقت العشاء في الليلة التالية!

كل شيء في هذا المنزل يسير في روتين معين، لم أقابل أحداً غير الشاب فيه، وقد كان قد أخبرني أنه ليس وحده، ولكنني بت أشعر أنني سكنت المنزل مدة من الوقت كانت تكفي لأقابل الأشخاص الآخرين، ربما كانوا أكثر منه انعزالاً!

بعد العشاء ذهبت إلى فراشي، ونمت فيه منهكة من العمل، ولم يتسنّ لي الوقت للقراءة بعد، فقررت أن أتابع في اليوم التالي.

الفصل السابع

استيقظت حينما أشرقت الشمس، كان من المفترض أن أنهض مبكرة أكثر، ولكن لم يكن أحدهم يعاتبني أو يراقبني أثناء عملي، ولكني لم أتجرأ أن أنام أكثر من هذه المدة أيضاً، فلم أكن أريد أن يغضب مني أحدهم.

باشرت التنظيف، هذه المرة في غرفة الفتاة، كلما نظرت في زاوية فيها كانت أجمل من سابقتها، حتى السقف كان مليئاً بالمنحوتات الدقيقة، والمصابيح مليئة بالجواهر الثقيلة، شعرت أن هذه الحجرة وحدها قد صرف عليها ما صرف على جميع الغرف في المنزل مجتمعة، طبعاً فهي حجرتها...

لم أستطع أن أنتهي من تنظيف الغرفة في ساعات، ربما كان علي أن أنظفها على فترات أطول، قررت أن أتوقف عن التنظيف وآخذ قسطاً من الراحة من الإرهاق الذي أصابني أثناء العمل، ولكن بصراحة كان هناك سبب آخر، فقد كنت أريد أن أعاود القراءة، فقد كانت الكتب في الطابق السفلي هي كل ما يجول في خاطري.

نزلت إلى حيث الكتب، وحملت الكتاب الأول من جديد، أريد

أن أتابع القراءة، وقفت قليلاً أفكر أين سأقرؤه، وفي أي حجرة، لم أفكر طويلاً، وقررت أن أتابع القراءة هذه المرة في غرفتها.

جلست على أريكة في غرفة الفتاة، وفتحت الكتاب بعناية، وتابعت القراءة

"أما غرفتي فقد كانت غرفة الأحلام كما تستطيع أن تصف الكلمات، ولكن هل لاحظ أحدهم قبلي أن عدد الجواهر على المصباح الأول تزيد عن عدد الجواهر على المصباح الثاني بقطعة، مع أنهما يفترض أن يتطابقا! نعم، فعدد الجواهر في المصباح الأول هو ١٠٣، بينما عددها في المصباح الثاني هو ١٠٢ فقط!"

توقفت عن القراءة، ونظرت فوقي إلى المصابيح، إنهما اثنان متطابقان! كيف لها أن تعد كل تلك الجواهر المعلقة في كل منها! إنها تقوم بأمور غريبة! لم أستطع حتى التفكير في عدها للتأكد، فقد كان ذلك عملاً جنونياً بلا شك!

تابعت القراءة "إذا كنت تريد أن تعلم أي قطعة هي الناقصة فأستطيع أن أقول لك أنني أعرفها، ولكنني عجزت عن وصف مكانها لأحدهم، فالمصباح مستدير، وليست هناك نقطة بداية أستطيع أن أحددها لك، ولكنها بشكل عام أقرب إلى الأطراف الداخلية.

أمـا كرسـي التـسريحة، فقاعـه مخـدوش بـأداة رفيعـة، شـيء كالسكين، لا أدري من فعل به ذلـك، ربمـا مـن صـنعه كـان مهمـلاً إلى درجة كبيرة ضرب فيها الخشب أثناء صـناعته! كيـف لـه أن يحـصل على شرف لا يستحقه بصناعة أثاث في هذا المنزل!"

هذه أستطيع تفحصها بسهولة، نـهضت عن أريكـتي، واتجهـت إلى كرسي التسريحة، وقلبته علمـاً أنـه كـان ثقـيلاً، نظـرت إلى قاعـه أتوقع رؤية خدش كبير ترك أثـراً واضـحاً، ولكـنني لم أجـد! فـدققت النظر أكثر، نعم هناك خدش صغير في المنتصف، ولكنـه أحقـر مـن أن يذكر!

أعدت الكرسي وبدأت أفكر، هذه الفتـاة لـديها نظـرة تـشاؤمية فظيعة! حتى في منزل فخم كهذا ترى النواقص! ولكنني فكرت أيضاً، ربما تفعل ذلك لأنه الشيء الوحيد الـذي تقـوم بـه في حياتهـا، حيـث الوحدة تغمرها بشكل كبير.

تابعت القـراءة، قـرأت وقـرأت، إلى أن بـدأت أشـعر بالثقـل في عيوني، لقد حل المساء وأنا على حالي أقرأ على الأريكة! لقد أصـبحت بكل تأكيد أشبه الشاب، بل وقـد فهمـت الآن مـا يفعـل! لقـد وصـل في قراءته إلى صفحات متأخرة، ربما كان مـا كتـب فيهـا أعمـق أيـضاً، لا

عجب أنه يقضي وقته كاملاً في القراءة.

أغلقت الكتاب بصعوبة، ونهضت عن الأريكة أخيراً، واتجهت إلى الغرفة السفلية لأعيد الكتاب، ثم عدت إلى غرفتي لأتمدد على فراشي، لعلي آخذ قيلولة صغيرة قبل العشاء، ولكن في طريقي إلى الغرفة كانت صالة البيانو، التي اعتدت أن أرى الشاب يقرأ فيها، نظرت من فوهة الباب فإذا به يقرأ، كالعادة، وإلى جانبه كوبان من القهوة، أحدهما نقص عن الآخر بضع رشفات، أما الآخر فلم يلمسه أحد.

ربما يكون من الغريب أن أقول أنني اعتدت على هذا المنظر، لم يشرب الفنجان الآخر أحد، لم يأكل من الطبق أحد، لم ولم ولم، ومع ذلك فإن الشاب كان حريصاً على ألا ينساه في أي مرة! بدأت أشك... هل هذا الفنجان لشخص ما، أم لروح كانت هنا؟ من الواضح أنني أفكر بروح معينة، ألا وهي روح الفتاة في الكتاب، هل يعقل أنه يفعل ذلك من أجلها؟ ولكنها توفيت، بل استناداً إلى نوعية الأوراق الصفراء، ربما منذ زمن!

لم يكن هناك أسلوب لطيف لسؤال الشاب عما أفكر، ولكن بما أنه لم يمض على وجودي هنا الوقت الطويل، قررت أن أصبر،

ووضعت رأسي على فراشي وغرقت في نوم عميق.

استيقظت بعد فترة، ونظرت إلى الساعة، مر على وقت العشاء ساعة كاملة! ركضت إلى غرفة الطعام، خوفاً أن يفوتني طعام اليوم! وصلت وفتحت الباب بسرعة، فإذا بالشاب يغسل الأطباق التي تناول عليها عشاءه! شعرت لحظتها أنني فشلت في عملي، لم يكن من المفترض أن يقوم هو بشيء كهذا، فهذا هو عملي بلا شك!

تابع الشاب تنظيف الأطباق بهدوء، فاقتربت منه أقول: "أنا جد آسفة، لن يحدث ذلك ثانية" ولكن الشاب لم يلتفت إلي، وتابع تنظيف الكؤوس، فقلت: "سأقوم بتنظيفها، ليس عليك أن تفعل ذلك" فرفع الشاب منشفة وبدأ يمسح بها الأطباق قبل إعادتها إلى مكانها على الرف.

هدوؤه كان أسوأ من أي شيء آخر، جعلني أشعر بالذنب أكثر فأكثر، مددت يدي أطلب إليه أن يناولني المنشفة فأتابع العمل على الأقل، ولكنه وضع المنشفة على الطاولة يريد أن يخبرني بشيء ولكنه لا يدري كيف! بقيت صامتة أنتظر ما سيفعل، فبدأ يشير.

أشار إلى المنشفة، ثم إلى المنزل بشكل عام، ثم إلى نفسه! ربما كنت قد فهمت ما قصد من المرة الأولى، ولكنني لم أجرؤ على نطق

الجملة التي يقولها! ولكنه أعاد ذلك ثانية، وثالثة، عندها فكر أنـني ربما لم أفهم عليه، فبدأ يفكر بأسلوب آخر يخبرني فيه ما يعـني، في هذه اللحظة شعرت أنه ربما يمل من التعامل معي هكذا طول الوقـت، فقررت أن أساعده، فقلت: "تنظيـف... المنـزل..." فأشـار بالإيجـاب، ينتظر مني أن أتابع، ولكنني سكتت، عندها أشار إلى نفسه يـذكرني، فقلت: "أنت!" فأشار بالإيجاب، فقلت أخـيراً: "أنـت مـن كـان ينظـف المنزل قبل حضوري" فأشار الـشاب بالإيجـاب، بـل بالارتيـاح، أنـني فهمت عليه ما يقول.

شعرت أنه واجه صعوبة في تفسير ما يريد أن يقول، علماً أنـني كنت قد فهمته منذ أول مرة، ولكنني لم أجرؤ على قـول أنـه مـن كـان يقوم بالتنظيف! لا يبدو عليه أنه عامل هنا! هل... هـو عامـل مثلـي، وأصحاب المنزل أوكلوا إليه مهمة التنظيف فقط؟ لم يخطر شـيء كهـذا على بالي من قبل! إنه أجمل وأرقى من أن يكون عاملاً!

حمل الشاب الأطباق وأعادها إلى مكانها، ثم أشار إلى طبق متبـق على الطاولة إلى جانب ما تبقى من الطعام، علمت أنه طبقـي، لأتنـاول العشاء، ولكن كان هناك الآن ما هو أهم من العشاء، هـل أنـا مـن يقـوم بالتنظيف عوضاً عنه ليقرأ في الكتب؟ هل كان يستغلّني طول الوقت؟

لاحظ الشاب في وجهي علامات الريبة، فحدق بي كأنه يسألني ما الأمر، فقلت بصوت خافت على ما أظن، وبتردد شديد: "لماذا... كنت تنظف المنزل؟" شعر الشاب بحيرة من أمره، لماذا ينظف أحدهم المكان الذي هو فيه! لم يستطع أن يجيب على سؤالي، فعلمت أن سؤالي أخذه بعيداً عما كنت أفكر فيه، فقلت أقرب الفكرة إليه قدر المستطاع: "أين صاحب هذا المنزل؟"

توقف الشاب عن التفكير في السؤال السابق، وتغيرت ملامح وجهه فجأة وقد فهم ما أعني، ولكنه ابتسم، وتنهد رافعاً كتفيه، ثم وضع يده على صدره.

بقيت أحدق في الشاب، لم يفعل أكثر من ذلك، ظل واضعاً يده على صدره ينتظر أن أقول شيئاً، ولكنني لم أفعل، فضرب على صدره ثانية وثالثة، فقلت: "أين صاحب هذا المنزل؟" فضرب على صدره بسرعة أكبر، وقد نفد صبره، فقلت: "أنت لست صاحب المنزل" عندها أنزل الشاب يده عن صدره، وقد شعر أن لا أمل يرجى في النقاش بعد، وتنهد ثانية، ثم وضع يديه في جيبه ومشى ليخرج من الغرفة.

ربما كان من الطبيعي أن أعتذر بسرعة عما سألت، خاصة أنه كان يسير ببطء نحو الباب، وكأنه ينتظر أن يسمع شيئاً مني، ولكنني

لم أفعل! هذه كانت أول مرة أشعر فيها أنني بت أريد أن أصل إلى الحقائق هنا، لا أن أعمل وآكل وأنام فقط.

الفصل الثامن

استيقظت في صباح اليوم التالي أشعر بالجوع، لم أكن قد أكلت جيداً البارحة، فقط كانت الأفكار تلف رأسي بشكل مزعج.

نهضت واغتسلت، ثم وقفت أمام المرآة أبحث عمّا تغير بي، أشعر أنني بت شخصاً آخر، بل ربما لم يتسنّ لي من قبل أن أكون بهذه القوة، حيث الفقر والجوع والأسى.

جلست على الفراش مجدداً، ومددت نفسي عليه أحدق في السقف المزخرف، أفكر فيما فعلت، وفيم سأفعل، أفكر بالشاب، هل ظلمني أم ظلمته؟ إذا كان صاحب المنزل حقاً لكان طردني لحظتها! إذن فهو ليس كذلك، إنه يهزأ بي، بل ويستغلني أيضاً!

لففت نفسي بالفراش، وخبأت رأسي أحاول التوقف عن التفكير دون جدوى، ولكنه أصغر من أن يكون مالك هذا المنزل، إنه أصغر من أن يكون مالك أي منزل!

رفعت الفراش بعنف عن وجهي، وقد مللت التفكير، وعلمت أخيراً أن أفضل وسيلة أتخلص فيها من هذا القلق أن أواجه الشاب ثانية، وليكن ما يكون.

نهضت من الفراش، وخرجت من الغرفة، اتجهت فوراً إلى صالة البيانو، وفتحت الباب دون أن أبالي، فرأيت الشاب يقرأ في الكتاب، ولكنني توقفت فجأة، ونسيت كل ما جئت من أجله، لحظة لاحظت الدموع في عينيه! لم أتخيل أن أراه هكذا! بل لو علمت أنني سأرى شيئاً كهذا لما دخلت!

ولكنه لم يلتفت إلي، ولم يهتم حتى بمسح الدموع عن عينيه كي لا أراها، شعرت لحظة أنه لم يشعر أنني دخلت أساساً، فتذكرته عندما طلب إلي ألا أزعجه أثناء القراءة، وقد علمت الآن بم يقرأ، فاحترمت خصوصيته هذه، وخرجت من الصالة، وأغلقت الباب خلفي بهدوء.

ماذا عساي أن أفعل الآن؟ هل أنا فعلاً منزعجة من الشاب؟ هل يظلمني بجعلي أنظف المكان وأنام على فراش جميل؟ ولكن عليه أن يعمل هو الآخر! الحقيقة أن عليه أن يعمل حتى لو كان سيد المنزل، ولكنني لن أجرؤ على قول شيء كهذا بكل تأكيد! ولكنه كان ينظف الأطباق، ولم يطلب إلي أن أساعد! بل ولم يكن منزعجاً أنني تأخرت، بل أنا من أزعجه في النهاية! كم هذا سيء!

نوعاً ما بدأت أفكر كيف أخطأت، وكيف أن الحق معه أياً كان، فهو لطيف معي، ولم يؤذني، ولم يجرحني لحظة، بل ربما أنا من فعل!

سرت مبتعدة عن الصالة، ومبتعدة عن غرفتي أيضاً، ثم وصلت إلى الدرج المؤدي إلى الطابق السفلي حيث الكتب، نزلت وحملت كتاباً لأقرأ فيه، هذا هو الشيء الوحيد القادر على تهدئتي، بل ربما تهدأتنا.

تمددت على فراشي في غرفتي، وفتحت الكتاب أقرأ "كنت أتناول الطعام في الصالة المخصصة كل يوم، الطاهي يحضر أجود أنواع الطعام في العالم، ويجهز لي المائدة في ذات الصحن المزخرف بالدوائر المتداخلة، والملعقة ذات الحفة المستديرة، والعلامة الخضراء على أطرافها، الشوكة والسكين من نوعية الملعقة ذاتها، والكأس مزخرف بدوائر تشبه الدوائر على الصحن.

هكذا كل يوم، في المكان نفسه، على الأطباق نفسها، آكل وحدي، ولا أحد يشاركني. لطالما تمنيت أن يحضر أحدهم لتناول الطعام معي، حتى وإن لم يكن والدي، لذلك كنت غالباً ما أترك المقعد الأول المخصص للشخصيات المهمة لشخص ربما يحضر لتناول الطعام معي، وكنت دائماً أجلس على يمينه، بل أحياناً أتصوره موجوداً، أو ربما يقف خلف الباب لا يعرف أنني أتوق لرؤيته."

فكرت بمائدة الطعام، الشاب يتصرف تماماً كما تفعل الفتاة في الكتاب! الطبق ذاته، الملاعق ذاتها، بل مقعدها ما يزال ينتظرها!

والشاب يجلس على المقعد الذي كانت تنتظر فيه مؤنسها، هل يفعل الشاب ذلك ليؤنسها؟ ولكنها ماتت، أو كما يفترض أن تكون كما كتبت في أول الكتاب! هل مايزال يعيش الشاب على ذكراها؟

قلبت الصفحة وتابعت القراءة "من عجائب هذا المنزل أن أحداً لم يستطع أن يحفظ ممراته وغرفه كاملة... سواي، فقد دخلتها جميعها، وحفظتها، بل وأطلقت رقماً على كل ممر يعبر عن عدد الخطوات التي أحتاجها لقطعه، فقد لاحظت أن جميع الممرات تختلف بطولها عن الأخرى، وعندما قمت بهذا الترقيم تأكدت من فرضيتي، لا يوجد ممر بطول الآخر.

أما عن الغرف فقد كانت مرتبة حسب الأحرف الأبجدية في كل ممر، أول باب هو (أ)، والثاني هو (ب)، الثالث هو (ج)، إلى آخر باب في الممر، ولكي أقوم بتسهيل الأمور عليك، فإنني قمت برسم خريطة للممرات والأبواب والغرف بنفسي، والخريطة في الدرج الرابع من الخزانة الخامسة في غرفتي"

هنا توقفت عن القراءة وركضت بسرعة مغادرة غرفتي متجهة إلى غرفة الفتاة لأبحث عن الخريطة، هل مازالت هناك؟ إن الشاب حريص على الحفاظ على كل الأشياء في مكانها.

وصلت الغرفة، فتحت الباب بسرعة، ووجدت الخزانة الخامسة، ففتحت درجها الرابع، هناك يوجد صندوق خشبي مزركش، يبدو أنه بحاجة إلى مفتاح! نظرت إلى الكتاب في يدي، وفتحت الصفحة لأتابع القراءة.

"طبعاً استغرقت الخريطة مني ستة أشهر كاملة لرسم تفاصيلها، لم أكن لأتركها في مكان يسهل الوصول إليه، فوضعتها في صندوق محكم الإغلاق، واحتفظت بالمفتاح لنفسي."

انتهت الفقرة، شعرت بخيبة أمل كبيرة، هل علي أن أعاني طول الوقت للوصول إلى مكان في هذا المنزل؟ ألم يكن عليها أن تكون كريمة أكثر! أين يمكن أن يكون مفتاح كهذا؟ بل ماذا تعني بجملة: احتفظت بالمفتاح لنفسي!

أغلقت الكتاب أشعر بخيبة أمل كبيرة، وجلست على أريكة في غرفة الفتاة، أنظر إلى نفسي، أشعر أن انعكاس الفتاة سيكون على المرآة لا انعكاسي، عندها فتحت الكتاب ثانية أقرأ "وبما أنني أتحدث عن الممرات، فإني أذكر تماماً اليوم الذي أسقطت فيه عصير التوت على زاوية الممر الخامس والثلاثين، بالقرب من الباب (ج)، لم يستطع أحد من العاملين تنظيفه، فما تزال بعض الآثار قد انطبعت هناك"

أغلقت الكتـاب مجـدداً، إذا بـدأت الفتـاة تـصف الغـرف بهـذا الأسلوب، فقد كان علي أن أجد الخريطة! أو أن أقوم برسم واحـدة لـي وهذا مستبعد، أو... أن أسأل الشاب عنها، فربما كان قد وجدها، فهو يتابع قراءة أجزاء متقدمة من الكتاب!

تذكرت ما قلته للشاب بالأمس، سؤاله لم تكن فكرة حسنة على الإطلاق، ربما كان علي أن أفكر أين تضع الفتـاة المفتـاح، ولكـن رأسـي تملؤه الأفكار، ليس بالإمكان أن أركز في شيء جديد.

نزلت إلى الطابق السفلي أعيد الكتاب إلى مكانه، ورغبت في النظـر في اللوحات ثانية، فرفعت الستائر عنهـا، ونظـرت فيهـا، إنهـا جميلـة ومتقنة كالعادة، ولكن الآن باتت تحمل معان أكبر، إنها هي، الفتاة التي أقرأ كتابها، أشعر أنني قرأت عن بعض المشاهد في هذه اللوحات، عنـدها فكرت، لابد أن اللوحـات أثمـن مـا تملـك الفتـاة، فهـي لا تقـدر بـثمن، والعناية الخاصة التي عنيت بهـا تجعلـني متأكـدة أنهـا الأثمـن، وهـذه الغرفة هي الغرفة السرية لكل ما تملك، إذن فالمفتاح لابد أنه هنا!

نظـرت حـولي، المكـان لا يحـوي إلا الكتـب علـى الرفـوف، واللوحات حولها، هـل المفتـاح خلـف الكتـب؟ أم خلـف اللوحـات؟ أم ربما زرع داخل لوحة؟ هذه مشكلة، لن أجرؤ على لمس لوحة واحـدة!

نظرت في إحدى اللوحات فوجدت الفتاة ترتدي عقداً علق عليه مفتاح! لابد أن هذا هو المفتاح المعني، فهذه كانت الصورة الوحيدة التي ارتدت فيها الفتاة المفتاح!

رُسمت الفتاة في اللوحة ترتدي عقد المفتاح، وتتدلى من نافذة حجرتها تحاول الإمساك بثمرة حمراء من أعلى الشجرة، كان المشهد خطيراً، ولكنه كان متقن الرسم، حدقت طويلاً في اللوحة أفكر، أين العقد؟ هل أجده ضمن الجواهر في غرفتها؟

اتجهت إلى الغرفة، وبدأت أبحث في سائر الأدراج، دون فائدة، لدى الفتاة أشكال مختلفة من الجواهر، ولكن إحداها لم يكن على شكل مفتاح! يئست من البحث بعد مدة، لقد عدت للبحث عن المفتاح في الغرفة رغم أن اللوحة لم تعبر عن شيء كهذا! عندها تذكرت اللوحة، فنظرت إلى نافذة الحجرة، وفتحتها، ونظرت إلى الشجرة المقابلة، إنها الشجرة التي رسمت في اللوحة، بثمارها الحمراء! لم أعرف ما أفعل لحظتها، ولكن كل ما خطر ببالي أن أضع نفسي موضع الفتاة في اللوحة، فتدليت إلى حيث الشجرة، بل إلى حيث الثمرة، فإذا به المفتاح!

كدت أسقط من الانفعال، ما إن التقطت المفتاح حتى ركضت إلى الصندوق، فتحته، وأخرجت الخريطة.

رسمت الخريطة بخطوط متعرجة، توحي أن راسمها لا يتجاوز العاشرة من العمر، ولكن الأرقام والأحرف كانت واضحة كفاية حتى أتعرف على الأماكن. الصالة الرئيسية واضحة بسبب حجمها الكبير، حاولت أن أتبع الممرات التي أعرفها، إلى أن عيّنت غرفتي الخاصة في الممر الحادي والعشرين، الغرفة (د).

لحظتها تذكرت، لقد عيّنت الفتاة ممراً في الكتاب، كان الممر الخامس والثلاثين، قرب الغرفة (ج) على ما أذكر. نظرت في الخريطة، فوجدت المكان الذي قصدت، فحملت الخريطة أحدق بها جيداً، وأركز في الممرات، إنها رسمة دقيقة بلا شك، ووصلت إلى الممر المطلوب، ووقفت أمام الباب، عند هذا الباب ينزوي الممر، نظرت إلى أرضه فإذا ببقعة حمراء فاهية هناك! كانت محاولات التنظيف المتكررة واضحة عليها، ومع ذلك كانت هناك بعض الآثار الباقية كما وصفت الفتاة.

بقيت واقفة أنظر في الممرات والأبواب، أي حياة كانت تعيشها هذه الفتاة الصغيرة وحدها؟ إنها تكتب كل ما يجري معها بتفصيل وكأنها تريد الحديث إلى أحدهم. بدأت أشعر بالأسى عليها، إنها جميلة وذكية، ولكن الوحدة قاتلة في طيات الكتاب، تمنيت لو لم تكن

قد توفيت، لو كنت استطعت أن أعمل هنا قبل وقت لربما كنت أصبحت صديقة لها.

عدت إلى حجرة الفتاة، وحاولت أن أحفظ الخريطة حتى لا أضطر لحملها طول الوقت، فمن المؤكد أن الشاب لن يحب ذلك، بل هل وجد الشاب الخريطة أساساً، شعرت أنني أريد أن أسأله، وأن أخبره أنني وجدتها، فالكتاب شيء يجمعنا، ولكنني أوقفت نفسي عندما تذكرت ما حدث بيننا، هل سيظل الوضع على هذه الحال؟

لم أستطع حفظ الخريطة، فقررت أن أضعها في العلبة، وأن أبقي المفتاح في نفس الدرج إلى أن أستطيع إتمام الحفظ، راجية أن هذا لن يزعج الشاب كثيراً، ثم عدت إلى غرفتي، وشعرت أنه علي أن أنظف ولو غرفة واحدة حتى أبقى في هذا المنزل. أخيراً حسمت أمري، وعدت إلى العمل، راجية أن يكون هذا هو القرار الصحيح.

في المساء حان وقت العشاء، ترددت قليلاً في الذهاب ومقابلة الشاب هناك، ولكنني كنت أتضور جوعاً، لابد لي أن آكل شيئاً.

ذهبت إلى البوابة الرئيسية، وحملت الطعام إلى الغرفة التي نتناول فيها دائماً، وجهزت المائدة لي، وللشاب، و... للفتاة كما كان يفعل الشاب دائماً!

جلست على المائدة أنتظر قدوم الشاب، لوهلة شككت أنه سيحضر ولكنه حضر، دخل الغرفة وفي وجهه بريق من السعادة، لم يصعب علي أن أعرف السبب، لابد أنه قد قرأ جزءاً جيداً في الكتاب، وجهه يدفع الفضول فيّ لأتابع القراءة، وأصل إلى الأجزاء الأخيرة كما وصل.

وجه الشاب المستنير جعلني أنسى ما جرى بيننا في العشاء السابق، ولكن هل نسي هو يا ترى؟ بقيت أركز في ملامحه إذا ما كانت ستتحول إلى انزعاج أو غضب من تذكر ما جرى، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، لقد كان في أحسن حال، ولم ينظر تجاهي على الإطلاق، أكل أكثر من العادة، وغادر الغرفة سعيداً كما دخل.

شعرت أنه كان علي المبادرة في الحديث، ولكنني لم أرد أن أمسح الابتسامة عن وجهه، فقد كانت جميلة ومريحة.

أنهيت طعامي، ونظفت الأطباق، وأعدت كل شيء إلى مكانه، وذهبت إلى فراشي، فكرت كثيراً في أمر الشاب، وبدأت أقتنع أنه ليس هناك غيرنا في هذا المنزل، ربما يكون هو صاحب المنزل فعلاً، فهو في الثامنة عشرة، ربما ورثه عن والده أو شيء من هذا القبيل، أو... ربما تركه والده في المنزل كما فعل والد الفتاة!

الفصل التاسع

استيقظت في فجر اليوم التالي بنشاط، وبدأت العمل في المنزل أكثر من أي يوم سابق، انجذاب الشاب إلى الكتاب جعلني أقنع نفسي أن فرضيتي في تشابه الشاب مع الفتاة صحيحة، حتى وإن لم يكن هناك دليل واحد على ذلك، ولكن هذه الفرضية أراحتني، وهذا يكفي.

وحان وقت القراءة، جلست في غرفة الفتاة أقرأ على الأريكة، وأنظر في الخريطة.

بقيت على هذا الموال بضعة أسابيع، أنظف ثم أقرأ، وأنظر إلى الخريطة، إلى أن شعرت أنني قد حفظتها تقريباً، وأنه قد حان الوقت لأعيد المفتاح إلى مكانه على الشجرة.

تدليت من على النافذة لأضع المفتاح مكانه على الشجرة، ولكن قدمي كانت قد انزلقت قليلاً عن النافذة وكدت أسقط، لولا أن أمسك أحدهم يدي وساعدني على التوازن من جديد، ونزلت من النافذة بسلام إلى الغرفة.

نظرت إلى الشاب الذي كان من أمسك يدي، طبعاً لم يكن هناك شخص آخر ليفعل ذلك أساساً، ولكنه كان سعيداً بما فعلت، كانت

ابتسامته تعني أنه سعيد أنني عرفت مكان المفتاح، فلم يكن متفاجئاً لما فعلت على الإطلاق.

شكرت الشاب على مساعدتي، فنظر إلى المصابيح في الغرفة، ثم أشار إليها، فتذكرت أن الفتاة كانت قد عدت الجواهر فيها، وأن العدد كان مختلفاً في الاثنتين، فقلت: "لقد قالت الفتاة أن الجواهر ليست متساوية" فأشار الشاب بالإيجاب، ثم أشار إلي أن أقترب من المصباح الأول، اقتربت منه، عندها أشار بيده على شكل دائرة، ثم الرقم ثلاثة، فقلت: "الدائرة الثالثة!" فأشار بالإيجاب، ثم أشار إلى المصباح، الذي كان يحوي ما لا يقل عن عشرة دوائر مرصعة بالجواهر، وأشار إلى اتجاه محدد، لم أفهم ما يريد أن يقول، ولكنه أشار بيده أنها قطعة إضافية!

حدقت في الشاب فترة، ظن فيها أنني لم أفهم عليه، ولكنني قلت قبل أن يعيد الشرح: "هل قمت بعد الجواهر؟" نظر إلي دون أن يقول شيئاً، حيث كان من الواضح على لهجتي أنني استهجنت شيئاً كهذا، بعد فترة ابتعد عني ليفتح الدرج الذي يحوي صندوق الخريطة، رفع الصندوق وأشار إلى الشجرة حيث المفتاح، فقلت: "لقد وجدت المفتاح، لقد كانت هناك رسمة تعبر عن مكانه"

هنا عاد الانتعاش إلى وجه الشاب، لقد كان سعيداً أنني وجـدت المفتاح، وحللت اللغز، ولكن كان من الواضح أن الـشاب يعلمـه قبلـي، فكان سعيداً أنه بات هناك ما يجمعنا.

ولكنني لم أكن متحمسة مثله، لـست أدري لمـاذا، لم يكـن حـل لغز كهذا أمراً هيّناً، ولكن انفعاله هـذا، والـذي لم أعتـد علـى رؤيتـه فيه، جعلني أشعر بالغرابة!

أتمنى ألا يكـون الـشاب قـد انـزعج لـردة فعلـي البـاردة في كـلا الموقفين، ولكن الصراحة أنني كنت سعيدة برؤيـة وجهـه يبتـسم بـين الحين والآخر، لربما كان يعرف الفتاة أصلاً.

لم يحدث موقف آخر بيننا فترة من الزمن، كنت أعمـل وأقـرأ، هكذا كل يوم، وقد قطعت شوطاً جيداً في الكتب، ومايزال الـشاب يقـرأ أيضاً، تساءلت يوماً ألا تنتهي هذه الكتب، إلى أن لاحظت رقم الكتـاب الذي بات يقرأ فيه، "١٠" إنه يعيده! يعيد قراءة الكتـب مجـدداً، إلى متى سيظل يقرأ بها، بل هـل هـذه كانـت أول مـرة يعيـد فيهـا قـراءة الكتب؟

جلـست في غـرفتي، في المـساء، وفتحـت الكتـاب الثـامن عـشر، وبدأت أقرأ فيه "لم يكن لدي صديق في هـذا المنـزل، بـل في أي منـزل،

كنت أتمنى أن ألتقي بأحدهم، أو حتى لو يمر من أمام النوافذ على الأقل، كان الناس دائماً يحاولون الابتعاد عن المنزل قدر المستطاع، فلم يكن هناك حس لبني آدم على بعد أمتار من الجدران. أظن أن هناك سراً لذلك، ربما هناك إشاعات عن هذا المنزل، أو أن والدي قد وضع لافتة شخصية تمنع أحداً من الدخول.

كانت صديقتي الوحيدة هي النجوم، كنت أحدق فيها كل ليلة من النوافذ، بل كنت أصعد إلى حيث الحمام، فيكون المنظر أجمل هناك. لطالما علمت أن النجوم لا تحوي بشراً، ربما كانت رمزاً للوحدة التي أشعر بها، أحب لو أعلم أن أحداً هناك الآن، ربما ينظر إلي، أو على الأقل في اتجاه المنزل."

أغلقت الكتاب بعد فترة، ونظرت إلى السماء، فكانت ليلة كثيرة النجوم، خرجت من غرفتي، واتجهت إلى الطابق العلوي حيث الحمام، لأرقب النجوم من هناك، كما كانت تفعل الفتاة.

فتحت الباب في الأعلى، فلم أكن وحدي، كان الشاب يجلس على ضوء القمر، يحدق في السماء، ويضع الحمامة بين يديه، يربت عليها بحنان.

وقفت إلى جانبه حيث كان لا يزيح ناظريه عن السماء، التي

كانت مليئة بالنجوم الليلة أكثر من أي ليلة أخرى. ربما لم يكن يحب أن يقاطعه أحد الآن أيضاً ولكنني قلت: "كانت تحب النجوم كثيراً" يبدو عليه أنه أحب أن يسمع شيئاً كهذا، فقد ابتسم وبرقت عيناه، ثم التفت إلي، وأشار أن أقترب لأراقب النجوم معه.

اقتربت منه، ونظرت إلى السماء، فعلاً كان المنظر خلّاباً، كانت لوحة فنية أثمن من كل اللوحات، هذه لوحة الخالق، قلت: "إنها تظنها رمزاً للوحدة، ولكنني لا أستطيع أن أرى فيها إلا إبداع الخالق" لم يقل الشاب شيئاً، فمن الطبيعي أنني لن أسمعه أساساً.

بقينا نحدق في السماء، لا يبدو عليه أنه سيمل من هذا المنظر أبداً، فنظرت إليه وقلت له: "آسفة على ما جرى" نظر إلي بعيونه تسأل عن ماذا أتحدث؟ فقلت: "لقد آذيتك بكلامي في المرة الماضية، أنا آسفة" ولكن الشاب أشار بإصبعه إلى نجم في السماء، لم يكن من الصعب أن أميز على أي نجم يشير، فقد كان واضحاً وكبيراً، وكان لونه مميزاً وبرّاقاً.

يبدو أن الشاب قد تجاهل ما قلته، ولكنني لم أفهم ما يعني بهذا النجم، ربما هو شيء لم أقرأه بعد عن الفتاة، بل ربما كانت قد أحصت عدد النجوم في مثل هذه الليلة، فلم أكن أريد أن أسمع شيئاً كهذا!

لم أقل شيئاً، ولكن كـان يبـدو علـى الـشاب أنــه يحـدق في ذلـك النجم من دون النجوم، بعد فترة اعتذرت له، ونزلت لأنام في غرفتي، بينما ظل هو جالساً يراقب النجوم، ولست أدري كم طال هذا.

في اليوم التالي استيقظت أشعر بانتعاش، أظـن أن الـسبب أنــني علمت أن الشاب ليس منزعجاً مني، وأنني قد رفعـت عـن نفـسي هـذا الهم الثقيل.

غسلت وجهي، ورتبت فراشـي، ثـم خرجـت لأعمـل، ومـررت بصالة البيانو، فنظرت من فتحة الباب فلم يكن الشاب جالساً، فتحت الباب فلم يكن على البيانو، ولم يكن في الغرفة كلها!

خطر ببالي أنه ربما ما يزال في الطابق العلوي حيث كان يرقـب النجوم! صعدت إلى هناك فوجدته جالساً كما كان!

اقتربت منه، وكدت أبادره السلام، ولكنني أوقفت نفسي عندما اكتشفت أنه كان غارقاً في النوم! إنه ينام على الكرسي، لم يتحرك منه الليلة كاملة.

ربما شعرت أن ما فعله لم يكـن سـليماً، الهـواء بـارد وسـيؤذي نفسه، بل لم يكن عليه أن يظل الليل كلـه يرقـب النجـوم! ولكـنني لا أخفي سراً أن منظره كان جميلاً، إنه ينـام بـسلام، يركـز رأسـه علـى

كتفه، وشعره يتدلى على رقبته عـن يمـين وشمـال، ربمـا كـان منظـره يستحق أن يكون لوحة ترسم.

لم أستطع إيقاظه رغم أنني كنـت أعلـم أنــه يتوجـب علـي فعـل ذلك، ولكنني آثرت أن أجلب بطانية، أغطيه بها كي لا يؤذيه الهواء، وأتركه إلى أن يستيقظ بنفسه، وأعود أنا إلى العمل.

الفصل العاشر

مرت الأيام وأنا أقرأ في الكتب، الوحدة، والحزن، والذكاء، والجمال كان ما يغطي كل الصفحات.

قرأت عن النجم الذي أشار إليه الشاب، حمداً لله لم تذكر الفتاة أنها قامت بتعداد النجوم في تلك الليلة، ولكن ربما كانت قد فعلت، واكتشفت أن الأعداد تختلف بين يوم وآخر!

أما النجم فقد كان المفضل إليها، لم يكن الأمر غريباً، فقد كان ضياؤه ولونه يجلب الأنظار، وكان واضحاً في السماء معظم الليالي، فكانت تكره الليالي التي يختفي فيها، فقد كان كصديق يحضر ويرحل.

دخلت على الشاب صالة البيانو وقد كان يعزف، انتظرته حتى أنهى العزف الذي طالما تمنيت أن أسمعه، حتى أنه لم تكن هناك أوراق للنوتة أمامه، يبدو أنه يعزف ما يحفظ!

قلت له: "رغم أنني لا أسمع، إلا أنني أستطيع أن أعرف أنك عازف ماهر"

التفت إلي الشاب، ثم حمل ورقة من على الطاولة، وحمل قلماً

كان إلى جانبها وبدأ يكتب، انتظرته حتى أنهى الكتابة، ثم قرّب الورقة مني، كان قد كتب فيها "هل تجيدين القراءة؟"

ربما لم يكن يقصد الشاب السؤال تحديداً، ولكنه فقط يفتح مجالاً للحوار لأول مرة! فهو لابد يعلم أنني أجيد القراءة بعد أن قرأت الكثير من الكتب أمامه، فقلت: "نعم أجيدها" عندها أعاد الورقة إليه وكتب مجدداً، يبدو أنه قد وجد أخيراً أسلوباً جيداً للحوار، بل ربما قرر أخيراً التحدث إلى أحدهم!

قرّب الشاب إليّ الورقة من جديد بعد أن أنهى الكتابة "هل تحبين البقاء في هذا المنزل؟"

فقلت: "أجل، بكل تأكيد"

كتب الشاب مجدداً، هذه المرة لم أصبر حتى ينهي الكتابة، بل نظرت إلى الورقة وما سيكتب فيها، فكان يكتب "أنا... مالك... هذا... المنزل... وقد... عينتك... تعملين... فيه"

سكتّ قليلاً، فقد كانت هذه نقطة الخلاف تماماً بيننا، ولكنه الآن يكتب على الورق، وربما كان من السهل عليه أن يتحاور معي، فقلت: "هل أنت فعلاً مالك هذا المنزل؟"

فكتب "هل يدهشك صغر سني؟"

لم أقل شيئاً، فكتب "أنا أبلغ الثامنة عشرة، ويحق لي أن أمتلك هذا المنزل"

"من أين لك المال؟"

كتب "ورثته"

لم أستطع أن أقول شيئاً آخر، ربما كان علي الاعتذار عن السؤال، حيث أنه يخبرني أن والده قد توفي! ولكنني لم أستطع أن أنطق بأية كلمة، ربما فهم من ذلك أنني لم أصدقه بعد، ولكن ربما كانت هذه هي الحقيقة.

ظل الشاب ينظر إلي، ولكنني لم أنطق بأية كلمة، فتنهد وحمل القلم هذه المرة بتثاقل، وكتب "لقد توفي والدي منذ زمن، وترك لي ثروة كبيرة، وما إن بلغت الثامنة عشرة، حتى اشتريت هذا المنزل"

قرأت ما كتب، ومع ذلك لم أفكر في الاعتذار، بل قلت: "فلماذا تعزل نفسك عن الناس؟"

حدق الشاب في عيني فترة، شعرت أنني أريد أن أنظر في اتجاه بعيد عن عينيه، ولكن كان علي أن أظهر الكثير من الجدية، فصمدت، عندها ابتسم الشاب، بل بدأ يضحك، كان من الواضح أن ضحكته خفيفة وانسيابية، حتى وإن لم أسمعها، ولكنني قلت: "ما المضحك في الأمر؟"

كتب عندما أنهى ضحكته "لماذا قبلت العمل في هذا المنزل؟"

قلت دون أن أفكر: "لأكسب بعض النقود"

عندها كتب "أنا لم أقدم لك فلساً واحداً"

"لقد كنت في الشارع، أما الآن فأنام على فراش خاص بي"

كتب "وهل هذا يكفي؟"

فكرت قليلاً ثم قلت: "ربما إلى فترة من الزمن"

كتب الشاب "لا مانع عندي من إعطائك بعض النقود، اطلبي الرقم الذي ترغبين فيه"

لم أصدق أنه يعرض عرضاً سخياً كهذا، لطالما اعتبرت نفسي محظوظة كفاية، فقلت: "اختر ما تراه مناسباً"

فكر الشاب قليلاً ثم كتب "مئة دينار"

كان المبلغ مناسباً، ولم أكن أفكر بأكثر من ذلك أساساً، مع أن خدماً في مثل هذا المنزل يحصلون على ما هو أكثر بكل تأكيد، إلا أنني وافقت، على الأقل حصلت على النقود في فترة أقصر مما كنت أتخيل، فقلت: "شكراً جزيلاً"

عندها ابتسم ثانية وكتب "هل أنت من هذه المدينة؟"

لا أدري لماذا يبتسم كلما كتب سؤالاً كهذا! ولكنني

أجبت: "كلا، من المدينة المجاورة"

هنا هزّ الشاب رأسه أنه فهم الوضع، عندما رأيته هكذا شعرت أنني لم أعد أفهم شيئاً على الإطلاق، فقلت: "وما الغريب في ذلك؟"

ابتسم الشاب مجدداً، ثم كتب "لا أحد يقترب من هذا المنزل، ولا أحد يرغب في العمل فيه"

"لماذا؟"

لم يعرف الشاب كيف يعبر عما يريد أن يقوله، ولكنني شعرت أن هناك أمراً مهماً يريد أن يقوله، ويجب أن أعرفه، بل كان يتوجب علي أن أعرفه قبل أن أحضر إلى هنا!

كتب الشاب أخيراً "لا يحب الناس هذا المنزل"

لم يكن ما كتبه كافياً، وهو يعلم ذلك، ربما يتهرب من قول الحقيقة كاملة، فسألته: "وما الذي جرى في هذا المنزل؟"

هنا لم يكن هناك بد من الإجابة الصريحة، فكتب "مات سكان هذا المنزل في لحظة واحدة"

لم أقل شيئاً، ربما كنت بحاجة إلى بعض التفسير، أو بعض التوضيح والتفصيل، أو ربما تكذيب ما قرأت! لم أستطع أن أنطق بكلمة، ولكن السؤال التالي كان "كيف؟".

فهم الشاب أن هذا هو ما يجول في خاطري، فكتب "لا أحد يعلم تحديداً كيف، ولكن اتهمت العاملة في هذا المنزل بقتل مالكِيه"

هنا جفلت، ماذا يقصد بهذا الكلام؟! وهل أنا من عليه أن يكون قلقاً أم مالك المنزل! أليس هو المهدد بالموت!

كتب الشاب لا ينتظر مني رداً "لا أحد يريد شراء المنزل أيضاً كما ترين، أنا من اشتراه بعد فترة من الحادث"

"لماذا؟"

فكر قليلاً ثم كتب "لأنه جميل، خسارة أن يكون مهجوراً"

لم أقل شيئاً، ما قاله لم يكن غريباً، ولكن لماذا عليه هو أن يكون صاحب هذا الفكر؟ لماذا لم يترك المنزل لمهووس آخر يشتريه.

ولكن الشاب أفحمني عندما كتب بابتسامة "لقد كان رخيص الثمن"

ابتسمت لابتسامة الشاب، أفهم الآن ما يجري، فوضع الورقة جانباً منهياً المحادثة، فقلت: "جميل أنه باتت هناك وسيلة للحوار بيننا، سعدت بالتحدث إليك" ابتسم الشاب مشيراً بالإيجاب، فاستأذنته، وغادرت الغرفة لأعود إلى العمل.

أخيراً بات الشاب قريباً، شعرت أنني بت أفهمه ولو بعض

الشيء، ولكن فكرة أن الخادمة قامت بجريمة هنا في هذا المنزل، كيف يستطيع أن يقول لي شيئاً كهذا! بل كيف يستقبل عاملة أصلاً!

تذكرت الإعلان في الجريدة، وكيف كان على زاوية الصفحة، فهمت الآن أن الناس كلهم يهربون من هذا المنزل، ربما يعتبرونه منزل شؤم أو شيئاً من هذا القبيل، ولكنني لا أؤمن بهذه الأمور، حتى وإن كانت الحكاية صحيحة فهي جريمة واضحة، وقد حدثت وانتهى الأمر، وليس من المفترض أن يحدث ذلك مع ساكن جديد، غريب هو تفكير الناس.

الفصل الحادي عشر

صرت أقرب للشاب من ذي قبل، ولكن كلما اقتربت منه أكثـر، شعرت أنه يعيش على ذكرى الفتاة أكثر، فهو يحـسب لهـا حـساباً في كل شيء يفعله، بل إنـه يفعل الأشياء التي كانت تفعلها، بت أتـساءل فعلاً هل كان يعرفها؟

فتحت الكتاب أقرأ، وقد وصلت إلى أجزاء متقدمة فيـه، ولم أمـل لحظة مـن القـراءة، بـل بـدأت الحكايـة تـسير في منحـى جديـد "كنـت جالسة في الطابق العلوي في الصباح، أطعم الحمامة بيدي، ربما كان هـذا أجمل ما كنت أفعل يومياً، ولكنني رأيت شيئاً يتحرك في الأسفل، شـيء يمشي بين الأشجار بالقرب من المنزل! إنه صبي في السابعة من العمر!

تركت الحمامة ونزلت مسرعة إلى الباب الرئيسي، وكلّي أمل أن يقترب الصبي أكثر.

فتحت الباب، لم أكـن أرى أحـداً، ولكـنني كنـت أسمـع صـوت أقدام تقترب، وهناك صوت شيء يتدحرج، إنها كرة!

تدحرجت الكرة إلى الباب، ثـم حـضر الـصبي يـركض خلفهـا، ولكن الكرة كانت في الداخل.

توقف الصبي، يبدو أنه أدرك أخيراً ما فعل، لقد ضرب بـالكرة إلى الداخل، كم كنت سعيدة بهذا، ولكن كان يبدو عليه أنه كان خائفـاً جداً.

للحظة شعرت أنـه سيـستغني عـن الكـرة، فأمـسكتها بيـدي، ووقفت في الصالة أمام الـصبي ليرانـي، ظـل الـصبي واقفـاً يحـدق بـي، فقلت: "هل تريد الكرة؟" وكانت هذه الكلمة أول ما نطقـت مـذ دخلـت هذا المنزل! فكان في صوتي بحة لم أعهدها! ولكن الصبي لم ينطق، بل أشار بالنفي!

شعرت بالحزن لذلك، ولكنني قلت: "ألا تريد أن نلعب؟" فأشار بالنفي! كم كنت أريد أن أسمع صوته ينطق! فقلت منزعجة: "ألا تجيد الكلام؟!" فركض خائفاً.

بقيت واقفة مكاني، أحمل الكرة بين يدي، لا أدري مـاذا أفعـل بها! كل ما أعرفه أنني احتفظت بها في مكان أمين، واعتنيت بها أكثر من أي شيء آخر، فهي شيء من خارج هذا المنزل.

بعد سنوات من هذا الحادث، بات عمري ثمانية عشرة عاماً، لم يمر والـدي علـي يومـاً، ولم أقابـل شخـصاً غـير الخـدم، الـذين كـانوا حريصين على العمل فحسب.

صعدت إلى الطابق العلوي في المساء أراقب النجوم، فسمعت صوت أقدام في الأسفل، لم أستطع تمييز شيء، ولكنني ركضت إلى الباب الرئيسي دون أن أفكر، وفتحته وأنصتُّ لصوت الأقدام، إنهم عدة أشخاص، ربما ثلاثة أو أربعة، كانت أصوات خطواتهم تقترب أجمل من ألحان الموسيقى! اقتربوا أكثر، أكثر...

توقف الصوت، هل توقفوا؟ بقيت مكاني أحاول الإنصات ولكن دون فائدة، لم أعد أسمع شيئاً! لم يخطر ببالي إلا أن أركض إلى غرفتي، وآخذ الكرة التي كنت قد حصلت عليها من الصبي الذي اقترب من المنزل منذ سنين، وعدت إلى البوابة، أمسك الكرة بين يدي وأقول: "ألا تريد أن نلعب؟" ولكن أحداً لم يجب! فصرخت بأعلى صوتي: "ألا تريد أن نلعب؟" عندها سمعت أصوات الأقدام تركض مبتعدة!

يبدو أنهم خافوا! ربما ظنّوا أنه صوت شبح هذا المنزل! فالإشاعات عنه كانت كثيرة، ومن الغريب أنهم اقتربوا منه أساساً.

أغلقت الباب، واليأس يملؤني، ما من أحد يود الاقتراب من هذا المنزل، ما من أحد يود لقائي، أو اللعب معي، أو حتى التحدث إليّ، إلى متى سأظل حبيسة هذا المنزل؟!

أعدت الكرة إلى مخبئها، لم يكن أحد ليجدها من الخدم، حيث لم يكن أحد يعلم بوجود خزانة علوية فوق الخزانة الأساسية، لا يستطع أحد الوصول إليها إلا من داخل الخزانة"

توقفت عن القراءة، ونظرت إلى الخزانة الرئيسة في غرفة الفتاة، فتحتها، ونظرت فيها أبحث عن بوابة لخزانة أخرى، خزانة علوية لابد أن لها بوابة من الأعلى.

لم أجد أي مقبض في أية زاوية، فدفعت الرف العلوي إلى الأعلى فلم يتحرك، فسحبته إلى اليمين فتحرك! إنه يفتح.

سحبته إلى أن جعلت فتحتة تتسع لأدخل رأسي فيها، ونظرت فإذا بالكرة هناك!

فضلت ألا ألمسها، فتركتها في مكانها، لقد اعتدت أن أجد كل ما تحدثت عنه الفتاة حاضراً في مكانه، وأن أتركه في مكانه كان شيئاً مهماً بالنسبة للشاب، وأظن أنه بات مهماً بالنسبة إلي أيضاً، فالحكاية كانت متقنة، ومفصلة في كل أجزائها.

ذهبت إلى صالة البيانو، فكان الشاب يعزف هناك، بت معتادة على هذا المنظر، وقفت إلى أن أنهى العزف، فنظر إلي عندما بدأت أصفق بيدي وأقول: "عزف جميل"

نهض الشاب وحمل ورقة، لا أظن أنه سيكتب: كيف أقول عن عزفه أنه جميل وأنا لم أسمعه! فلا أحب أن أقرأ شيئاً كهذا، وليس لدي جواب مناسب عليه! فقط ظننت أنه شيء جميل أن يقول لك أحد أن ما تفعله جميل ومتقن! ولكنه لم يكتب ذلك فعلاً، بل كتب "ما هو سبب صممك؟"

لم يسألني أحد صراحة هذا السؤال، ولكن بما أنني أتحدث بوضوح، فكان من المؤكد أنني أصبت بالصمم في وقت متأخر من حياتي، ولم أكن صمّاء لحظة ولادتي، ولكن كان لدي الجواب الواضح على هذا السؤال: "لقد أصبت بالتهاب حاد في أذني، ولم أتلق العلاج المناسب لقلة المال"

سكت الشاب، ربما حزن لإجابة مثل هذه، ولكنني لم أرد أن أجعله يشعر بالأسى، فابتسمت وقلت: "أنا لست صمّاء بالكلية، أستطيع أن أسمع الأصوات المرتفعة" ولكن لم يتغير وجه الشاب بسماع هذه الكلمات، بل يبدو أنه سرح، لست أدري هل كان يسرح قبل أن أقول ما قلت، أم أنه قد سرح بما سمع الآن! ولكنني قلت: "أنا بخير"

أخيراً كتب الشاب شيئاً، نظرت إليه فكان "لم يقبل أحد أن تعملي عنده بسبب ذلك"

كان ذلك صحيحاً دون شك، ولكنني قلت: "ولأنك لا ترغب في أن يزعجك أحدهم، لم تكن لترفض أن أعمل في هذا المنزل"

حدق الشاب فيّ، فشعرت أنني قلت شيئاً فظّاً، ولكن ربما كان علي أن أقوله لأشعر بالراحة، ولكنه بعد لحظة كتب "لو كنت أرغب ألا يزعجني أحد، لاخترت الخرس على الصمم"

لم تكن إجابة لطيفة، ومع ذلك كان كلامه صحيحاً، فقد كنت أزعجه بصوتي المرتفع! أدرت رأسي، فلم أعد أريد أن أتحدث في الأمر بعد، وهو كذلك أعاد الورقة والقلم إلى مكانهما شاعراً أن الموضوع حساس، ولا يفضل أن يتحدث فيه.

خرجت من الغرفة، وأغلقت الباب خلفي، وبدأت عيناي تذرفان الدموع رغماً عني، لست أدري لماذا، وأي جزء من الحوار هو الذي أبكي عليه، ولكن لم يكن ذلك مهماً، فقد كنت أرغب في البكاء، وفعلت.

الفصل الثاني عشر

نهضت في صباح اليوم التالي أشعر بصداع، لم يكن ذلك غريباً فقد بكيت إلى أن نمت في الأمس، والآن علي أن أعود إلى العمل.

كان اليوم يشبه أي يوم عادي، ولم أكن أتصور أنه سيحدث أي شيء جديد في حياتي، لم أكن لأدري أن يوماً كهذا سأسجله باسم: المعجزة العلمية الخالدة.

نظفت وقرأت في الكتب كما كنت أفعل كل يوم، أخيراً حان وقت العشاء، أخذت الطبق من على الباب، وفتحته على طاولة العشاء، كان الطعام شهياً كالعادة، ولكن كانت هناك علبة صغيرة مغلفة بين الأطباق! كان الغلاف وردياً، وقد ربطت عليه شريطة صفراء، إنها هدية.

حملت العلبة، إنها صغيرة بحجم الكف، وخفيفة أيضاً، لم أعلم ما فيها، بل كنت متأكدة أن لا حق لي في أن أفتحها، سأنتظر إلى أن يحضر الشاب.

حضر الشاب وأنا أحمل العلبة، حرصت على أن أعيدها إلى مكانها بسرعة، ولكنني كنت واثقة أنه رآني، اقترب من الطاولة،

وحمل العلبة، هزّها برفق ليسمع ما في داخلها.

بقيت واقفة أنظر، لم يكن يبدو على الشاب أنه تعجب من وجود علبة كهذه، بل شعرت أنه يهزّها ليتأكد فقط أنها تحوي ما يفكر فيه، وبعد أن تأكد منها، أعطاني إياها، وجلس على كرسيه.

بقيت واقفة أنظر إلى الشاب، والعلبة في يدي، حمل الشاب ملعقته وبدأ تناول الحساء، ثم نظر إلي أحدق به، فوضع الملعقة، وأشار بيده أن أفتح العلبة.

ربما أرادني فقط أن أفتحها له، فلم يخطر ببالي لحظة أنه سيكون شيئاً لي، ففككت الرباط، وبدأت أفتح الغلاف، والشاب ينتظر أن أنتهي. تحت الغلاف كانت علبة صغيرة بيضاء، نظرت إلى الشاب الذي كان ينتظر أن أفتحها، ففتحتها، ونظرت إلى ما في داخلها.

بقيت أحدق به، لم أدر ما هو! إنه شيء ملتو، يحوي بعض مفاتيح التشغيل، وفي نهايته قطعة بلاستيكية معكوفة، ومنه اثنان. نظرت إلى الشاب الذي كان ينتظر أن أقول شيئاً، ولكنني مددته إليه ليأخذه.

لم أتوقع ردة الفعل على وجه الشاب، لقد شعر بخيبة أمل! فقلت: "ما هذا؟" تغيرت ملامح الشاب بسؤالي، فشعر أنني أحتاج لبعض الشرح.

نهض الشاب وأخذ العلبة، وأخرج ما فيها، ووقف إلى جانبي، لم أعلم ماذا يفعل، فقد مدّ يده إلى شعري، شعرت أنني أريد أن أبتعد، ولكنه حمل الجهاز أمامي، وأشار إلى حيث يضعه، إنه يركّبه خلف أذني!

وضع الشاب الجهاز خلف أذني، ثم اتجه إلى أذني الثانية وفعل الشيء نفسه، وحرك شيئاً في كلا الجهازين، ثم قال: "هذا قد يفي بالغرض"

لقد قال ذلك! لقد قاله فعلاً، وقد سمعته! نظرت إلى الشاب فقال: "ألا تسمعينني؟" ولكنني بقيت صامتة من الدهشة! لم أتخيل أن أسمع صوت الشاب على الإطلاق، لقد كان صوته عميقاً كصوت الرجال! بل بدا وكأنه كبر عشر سنين أمامي مرة واحدة!

سكت الشاب، ربما شعر أن هذا لم يفلح، ولكنني قلت حينها: "لقد... سمعتك" فنظر إلي، وبدأ يبتسم، ولكنني لم أبتسم بعد! لقد تخطى الأمر مرحلة الابتسام، ولست أدري ماذا أفعل.

قال الشاب مسروراً: "ظننت أن هذا سيفي بالغرض، مبارك"

بعد أن تمعّنت بكل حرف نطقه الشاب، وبعد أن تلذذت نغمات الحروف من فمه، قلت: "أنت جلبتها لي؟"

فقال: ″سعيد أنها تعمل″

وضعت يدي خلف أذني، ألمس الجهاز، إنه سحر، مع أنني كنت أقولها لذات نفسي، إلا أنني نطقتها بصوت سمعه الشاب: ″يا إلهي! وهل وصل الإنسان إلى هذا المستوى من العلم!″ ضحك الشاب لذلك، وعاد إلى كرسيه سعيداً.

كان من المفترض أن أكون الأسعد، ولكن من ينظر إلينا يظن أن الشاب كان سعيداً، وكنت أنا حزينة! ولكنني لم أكن حزينة على الإطلاق، بل كنت ما زلت تحت تأثير الصدمة، وبدأت أسمع طرق الملعقة في طبق الشاب عندما بدأ يأكل، وصوت الكأس عندما يرتطم بالطاولة، بل بت أسمع ريق الشاب عندما يبلعه! بتّ أسمع كل شيء!

نظر الشاب إلي جالسة ولم أضع لقمة في فمي، قال: ″لن يؤذي الطعام الجهاز″ نظرت إلى الشاب أفكر فقط بكلمة أشكره بها، ولكنني كنت أعلم أن الدهشة ماتزال على وجهي، فكيف لي أن أقنعه أنني أكثر من سعيدة!

تابع الشاب تناول طعامه، أما أنا فقد كنت أبلع ريقي، أحاول أن أفتح فمي لأنطق بشيء، ولكنني فشلت كل مرة!

إلى أن أنهى الشاب طعامه، ونهض عن الطاولة، هنا فتحت فمي

بسرعة، فكانت أول كلمة: "شكراً" نظر الشاب إليّ، فبلعت ريقي وقلت بهدوء: "إنها... أغلى هديّة"

ابتسم الشاب وقال: "عفواً" وغادر.

بقيت وحدي في الغرفة، أجلس على الطاولة، والطعام مايزال أمامي، ولم آكل لقمة منه، نهضت بسرعة وركضت خارج الغرفة، متجهة فوراً إلى الطابق الأرضي، حيث الكتب واللوحات.

ربما يظن أي شخص أن آخر مكان يمكن أن أستخدم حاسة السمع فيه هو هذا المكان، ولكنني كنت أريد أن أصل إليه، لأنظر في اللوحات، لأتأكد أن أصواتاً لا تخرج منها.

وقفت أمام اللوحات، وحدّقت بها طويلاً، لا أصوات تصدر منها، ربما شعرت بخيبة أمل، لقد كنت أتخيل أنها تنطق بكل تأكيد! أعدت الستائر إلى مكانها، وأنصتّ إلى كل صوت يصدر عنها، حتى خطوات أقدامي على البلاط كانت شيئاً مميزاً بالنسبة لي.

سرت في الغرفة أدور حول الكتب، أسمع خطوات أقدامي تبعث صدى جميلاً في المكان، إنني أسمع! هذه الأشياء اليومية البسيطة بالنسبة لجميع الناس، كانت الأهم بالنسبة لي.

جلست على زاوية الغرفة، ربما كان أول ما سيفكر به أي

شخص في هذه اللحظات أن يتحدث إلى الناس، ولكنني لا أملك صديقة، بل إن صديقتي الوحيدة باتت في هذا الكتاب، وقد راعت طول الوقت عجزي، أما الآن... فهي لا تتحدث إليّ! أريد أن أسمع صوتها.

لحظتها سمعت صوتاً من الطابق الأول، نهضت وأنصتّ جيداً، إنه صوت البيانو.

صعدت إلى الطابق بهدوء أسمع العزف، إنه عذب جداً، ومتقن أيضاً. سرت إلى أن وصلت باب الصالة، الصوت بات مرتفعاً هنا، أمسكت مقبض الباب وفتحته بهدوء، ومع ذلك أصدر صوتاً! نظرت في الصالة، فلاحظت أن صوت العزف قد انقطع! نظرت إلى البيانو فلم يكن أحدهم عليه! نظرت في الغرفة، إنها فارغة، بل ومظلمة أيضاً!

أشعلت النور، ودخلت الصالة، لا أحد هنا! للحظة كنت متأكدة أنني سمعت صوت العزف! أين ذهب الشاب؟

أغلقت الباب وذهبت إلى غرفتي، هذا المنزل كان أهدأ من أن أسمع فيه أصواتاً كثيرة، تمددت على الفراش، هل يعقل أن أنام الآن وقد رزقت نعمة السمع الليلة لأول مرة بعد سنين؟ جلست على الفراش لا أعرف ماذا أفعل، ما هو أكثر مكان يصدر صوتاً في هذا المنزل؟ إنه البيانو! ولكن ما جرى جعلني أغير رأيي، لا أريد أن

أدخل الصالة الآن، فقد كانت مخيفة نوعاً ما!

دخلت الحمام، وفتحت صنبور المياه، وجلست أسمـع القطـرات ترتطم ببعضها في المغسلة، ربما كان هذا أكبر صوت يمكن إصداره.

الفصل الثالث عشر

فتحت عيني، فإذا بي غفوت في الحمام، وقطـرات المـاء مـاتزال تصدر صوتـها، نـهضت وأغلقت الصنبور، ونظرت في المـرآة إلى الجهـاز حول أذني، هذا لم يكن حلماً، لقد عدت أسمع من جديد، الحمد لله.

غيّرت ثيابي، وسرّحت شعري، وعدت إلى العمـل. كـان المنـزل هادئاً أكثر مما كنت أتخيل، لطالما شعرت أن للجدران صوتاً، أو حتـى حركة معينة في الأثاث، لقد كنت أحلم بأصوات كثيرة، كلما نظرت إلى شيء حولي، كان لابد أن له صوتاً أفتقده، أما الآن فقد تلاشت كل تلـك الأحلام بالحقائق الواقعة، ليس هناك أصـوات البتـة، لـيس هنـاك مـا يتحرك، ليس هنـاك مـا ينطـق! أريـد أن أسمـع، وإلا فمـا فائـدة هـذا الجهاز؟ أريد أن أتحدث إلى أحدهم! أريد أن أسمع المـذياع أو التلفـاز! أريد الكثير.

وضعت المكنـسة مـن يـدي، ذهبـت فـوراً أبحـث عـن الـشاب في المنـزل، بحثـت في غـرف كـثيرة إلى أن وجدتـه في غرفتـه، قلـت لـه فوراً: "أريد أن أخرج"

نظر إلي يتساءل: "إلى أين؟"

قلت: "إلى السوق، أريد أن أشتري بعض الحاجيات"

ابتسم الشاب وقال: "بل تريدين أن تسمعي بعض الناس"

قلت: "ربما"

قال الشاب ببساطة: "تستطيعين ذلك، ولكن لا تتأخري"

"هل تريد أن أحضر لك شيئاً ما؟"

"كلا، كل ما أحتاجه هنا"

استأذنت منه، وغادرت الغرفة، بل المنزل كله، ولم أفكر حتى بتغيير ثيابي، أو البحث عن ثياب مناسبة للتسوق.

فور خروجي من المنزل، بدأت أسمع بعض الأصوات، هناك عصافير على الأشجار، بل حفيف الأوراق كان كافياً لإدخال البهجة إلى قلبي، مشيت في الطريق، فبدأت أسمع أصواتاً أكثر، حافلات تسير في الطريق، مر رجل، ثم رجلان، ثم وصلت إلى السوق لأسمع كل الأصوات مرة واحدة.

ربما كان ذلك مزعجاً، ولكنه كان جميلاً، كل الناس ينطقون مرة واحدة، إنهم يتحدثون ويتشاورون، بل بعضهم يصرخ! كنت سعيدة جداً بسماع هذا الضجيج، رغم أنني أرى بعض الوجوه منزعجة إلا أنني كنت أراها جاحدة لنعمة لم تفكر بها من قبل، إنها تسمع!

مشيت أقترب من الأسواق، معظم النقاشات كانت حول الأسعار والبضائع، ولكن لم يكن ذلك مهماً، الصوت كان هو الشيء المهم الوحيد، عندها سمعت رجلاً يقول: "هل من خدمة؟" التفتّ إليه فكان يقصدني، تعجب الرجل من الدهشة المرسومة على وجهي، فقد كانت هذه أول مرة منذ سنين يناديني فيها أحدهم! فقال: "هل أفزعتك؟"

ولكنني ابتسمت وقلت: "أبداً" ونظرت إلى ما يبيع، فكانت بعض المعجنات بالسكاكر، فسألت: "بكم تبيع الواحدة؟"

فقال: "هذه بخمس قطع نقدية، أما الأكبر فبسبعة"

اشتريت منها، لا لأنني كنت أشتهيها، ولكن لأنني سمعت سعرها، ولم يضطر البائع للإشارة إلي بأصابعه بعد التفكير ملياً كيف يتفاهم معي. وكان طعم الحلوى ألذ من أي وقت آخر.

بقيت أجلس وسط السوق، أسمع المحادثات، الناس لديهم الكثير ليقولوه، أشياء خطيرة، أمور سرّية، ولكن في معظم الأحيان تكون أحاديث سمر لا أكثر. لم أكن أقصد التنصت على شؤون الآخرين، ولكنني كنت أريد أن أسمع، أسمع فحسب.

حل المساء، وانفضت جموع الناس، وما عاد هناك الكثير لأسمعه، رغم أن أي شيء هنا سيكون أفضل من هدوء المنزل! تذكرت

المنـزل، ونظـرت إلى سـاعتي، لقـد تـأخر الوقـت، لا أريـد أن يغـضب الشاب مني!

سرت إلى المنزل، وفكرت لحظتهـا فقـط بالـشاب، إنــه هــو مـن أهداني الجهاز! وضعت يدي خلف أذنـي ألمس الجهـاز وأفكـر، إنــه لطف كبير من الشاب أن يفكر بالأمر هكذا، ترى ما كانت تكلفته؟

وصلت إلى المنزل، ورفعت يدي لأكـبس مفتـاح الجـرس، ولكـن الباب كان قد فُتح قبل أن أفعل، لقد كان الشاب في انتظاري!

ما إن رأيت الشاب حتى قلت: "آسفة على التأخير" ولكنـه تـرك الباب مفتوحاً كما فعل أول مرة التقينا، وسار إلى الداخل!

لم يكن ذلك لطيفاً، فقد بتّ أسمع على الأقل! لمـاذا يفعـل ذلـك؟ ولكنني تذكرت فضله عليّ، فبقيت صامتة، ودخلت المنزل بهدوء، ثـم ذهبت إلى غرفتي، لست أدري هل كان الشاب منزعجاً من تـأخري، أم أنه كان يخشى ألا أعود؟ من يفكر بعدم العودة! أوه... تذكرت أن هـذا المنزل لا يحب أن يعمل فيه أحد بسبب الحادث، هل فكر أنني ذهبت أعمل في منزل آخر بعد أن صرت أسمع؟ أنا لست ناكرة للجميل هكذا!

الفصل الرابع عشر

استيقظت في الصباح، لم أكن قد نظفت الكثير البارحة، فقد قضيت معظم الوقت في السوق.

نهضت من الفراش، فسمعت صوت العزف على البيانو، إنه نفس اللحن الذي سمعته المرة الماضية.

اتجهت إلى الصالة، وفتحت الباب بهدوء، إنه الشاب يعزف. إنني واثقة أنه اللحن نفسه الذي سمعته المرة الماضية، بل ربما هو اللحن نفسه الذي يعزفه الشاب كل مرة! لست أدري لماذا أفكر هكذا، ولكنه إحساس، أرى لمسات يده على المفاتيح تشبه اللمسات التي كنت أراها قبل أن أسمع.

أنهى الشاب العزف، فقلت: "إنه أجمل عزف سمعته في حياتي"

نظر الشاب إلي وقال: "هو أول عزف تسمعينه منذ مدة"

أشرت بالإيجاب وقلت: "إنه جميل فعلاً"

نهض الشاب، وجلس على الأريكة حيث يضع الكتاب، وكوبا الشاي، ثم أشار إلي بالجلوس.

جلست أنظر إلى كوب الشاي، بينما يحتسي الشاب كوبه،

ولكنه نظر إلي وقال: "آسف أنه ليس لك"

قلت: "ليس الأمر كذلك... لمن هذا الكوب؟"

وضع الشاب كوبه على الطاولة، ثم قال: "ألا تعرفين؟"

أجبته: "كلا، فلم أجد أحداً في المنزل غيرنا" وكنت أظن أنه يضع الكوب دوماً للفتاة في الكتاب، ولكنني أظن أن هذا أغرب من أن أصارحه به

قال الشاب: "إننا لسنا وحدنا" وسكت.

لم يكن الشعور مريحاً، ربما كان من الأفضل أن أصارحه بأمر الفتاة، فكان الجواب أفضل من هذا بكل تأكيد! ولكن الشاب قال: "هل سمعت شيئاً من الناس في السوق؟"

لم أفهم ما يرمي إليه بالضبط، ولكنني قلت: "سمعت أصواتاً تتناقش في البيع والشراء لا أكثر"

لم يقل الشاب شيئاً، وشرب من كوبه بهدوء، فقلت: "هل كنت تخشى ألا أعود؟"

وضع الشاب الفنجان على الطاولة وقال: "أنت لست حبيسة هذا المنزل، يمكنك المغادرة متى شئت"

قلت: "لماذا أغادر؟"

نظر الشاب إلي، فشعرت أنني لست أفهم شيئاً بعد! ربما كان علي أن أتحدث مع الناس في الخارج أكثر! ولكن الشاب حمل الكتاب وفتحه، يبدو أنه بدأ يقرأ! لقد تجاهلني كلياً، بل إن علي ألا أزعجه الآن حسب الاتفاق!

تركت الأمر على ما هو، ونهضت لأتابع التنظيف في المنزل، بعد فترة قررت أن آخذ قسطاً من الراحة، وأن أقرأ في مذكرات الفتاة من جديد.

فتحت الكتاب، وبدأت أقرأ "كان الصوت الوحيد الذي أستطيع سماعه هو صوت البيانو، رغم أني لم أتعلم استخدامه، ولم يحضر إلي أي مدرس، ولكنني كنت أحب أن أجلس عليه، وأن أنقر مفاتيحه، وأستمع إلى صدى الصوت في المنزل.

كانت غرفتي تحوي بعض الكتب في شتى المواضيع، كنت سعيدة أنني وجدت كتاباً يعلم النوتة الموسيقية، رغم أنه لم يكن يحوي على نوتات موسيقية كاملة، إلا أنه كان يوضح طريقة العزف بكل دقة.

لم يكن لدي الكثير لأفعله في هذا المنزل، لذلك كان قضاء الوقت على البيانو يشغلني، أظن أنني كنت أجلس الساعات الطوال أردد فقط بعض الألحان، وأجرب بعض المقاطع، بل أحياناً أؤلف شيئاً قصيراً.

أظن أن تكرار الألحان جعلني أشعر برغبة في التـأليف، فبـدأت أكتب نوتة موسيقية خاصـة بـي، ربمـا لا تكـون جميلـة كالمقطوعـات المشهورة، ولكنني أحببتها، ولطالما عزفتها على هذا البيانو، فلم يكـن هناك ما يشغلني سواه، ولم تكن لدي مقطوعة غير التي ابتكرتها"

هنا رسمت الفتاة النوتة الموسيقية التي ألّفتها، إنها مكونة مـن ثلاث صفحات، يبدو أنها معقدة! هل يعقل أنها كتبتها وحدها فعلاً! ربما صنعت الوحدة هذا الابداع، ولكـن المـشكلة أنـني لا أجيـد قـراءة النوتة! هل هي المقطوعة التي يعزفها الشاب دوماً؟

حملت الكتاب، وذهبت به إلى الشاب، ولكنه كان مايزال يقرأ! انتظرته ساعة ولكنه لم يحرك ساكناً، غـير أنـه كـان يقلـب صـفحات الكتاب كل فترة.

مللت الانتظار، فالمعزوفة الـتي سمعتهـا منـه تـتردد في أذنـي، وأنا أعلم أن الشاب لن يترك الكتاب قبل موعد العشاء! أريد أن أعـرف إذا ما كانت هي! عندها خطرت ببالي فكرة، بما أن الشاب لن يتحرك من مكانه قبـل العـشاء، أسـتطيع أن أخـرج إلى الـسوق، وأن أذهـب إلى متجـر لبيـع الأدوات الموسـيقية، فأطلـب إليـه أن يعـزف لـي هـذه المقطوعة، لابد أن أحدهم سيتقنها.

لم أفكر ثانية، حملت الكتاب، وخرجت من المنزل، كـان الجـو بارداً، والطقـس ممطـراً، فلففـت الكتـاب بوشـاحي بعنايـة، وحملـت المظلة، وركضت بسرعة إلى السوق.

كانت بعض الأسواق مقفلة بسبب المطـر، بـل إن متجـر الأدوات الموسيقية كان يحـاول إقفـال بوابتـه لحظـة وصـولي، فاسـتأذنت منـه بالدخول، فوافق.

رفعت الوشاح عن الكتاب، وتأكدت أن قطرة ماء واحـدة لم تكـن قد وصلت إليه، وفتحت علـى صـفحات النوتـة الموسـيقية، وطلبـت إلى صاحب المتجر أن يحاول أن يعزفها لي.

تأمل صاحب المتجر أنني كنت حاضـرة لأشـتري شـيئاً، فخـاب أمله عنـدما طلبـت إليـه هـذا الطلـب، ولكنـه تمالـك نفـسه، وتنهـد، وأمسك بالكتاب بلا مبالاة، ووضعه على مسند البيانو، وحدق به.

بعد فترة قال: "من كتب هذه النوتة؟"

قلت له: "صديقة لي"

"آه، ليس عازفاً مشهوراً كما توقعت"

وبدأ العزف، إنها المقطوعة ذاتها كما توقعت، جميلة وهادئة، أغمضت عيني أستشعر اللحن، وأتخيل الفتاة، ولكن بعد فترة شـعرت

أنني بت قلقة! إن اللحن يحتمل معنى لطيفاً، وآخر قلقاً مضطرباً في الوقت نفسه! لست أدري لماذا انقلب إحساسي هكذا فجأة، وشعرت أن الفتاة لم تكن تعزف هذا اللحن بسعادة، بل إنها مضطربة!

نظرت إلى النافذة فإذا بالعاصفة تشتد، فحملت الكتاب عن المسند بسرعة، وتوقف صاحب المتجر عن العزف ينظر إلي وأنا أخرج من المتجر مسرعة! حاول أن ينادي ولكنني كنت في الخارج.

لففت الكتاب بوشاحي جيداً، وركضت في المطر إلى المنزل بأقصى سرعة، كانت دقات قلبي تتسارع، شعرت أنني قد أقدمت على جريمة بإخراج الكتاب من المنزل دون أن أدري!

وصلت المنزل فإذا بالبوابة الرئيسية مفتوحة! والمطر يدخل المنزل! دخلت بسرعة وأغلقت البوابة خلفي، وحاولت التقاط أنفاسي، ولكنني مازلت قلقة.

ركضت إلى الطابق السفلي، فقد علمت أن بالي لن يرتاح قبل أن يعود الكتاب إلى رفه المخصص، ولكنني ما إن وصلت الغرفة حتى قابلت الشاب هناك!

لقد كان مبتلاً، يبدو أنه قد ركض تحت المطر! نظر إلي نظرات المنزعج، الخائب الأمل، ثم حدق في الكتاب بين يدي، فقبضت على

الكتاب أعلم أن هذا هو سبب انزعاجه!

بقيت صامتة لا أدري ما أقول، فأنا أعلم تماماً أنه ما كان علي إخراج الكتاب من المنزل! لن أستطيع أن أبرر ما فعلت، فظل الشاب يحدق بي إلى أن علم أنني لن أقول شيئاً إذا لم يبدأ هو بالكلام فقال: "لماذا؟"

هذا السؤال هو بالتحديد ما لن أجد إجابة له! طأطأت رأسي، وحدقت عيوني بالأرضية، فقال: "ألم أقل لك ألا تحركي شيئاً من مكانه؟"

لقد كنت حركت الكتاب من مكانه من قبل لأقرأه، وقد كان سعيداً بذلك! ولكن فكرة أن آخذه خارج المنزل شيء آخر على ما يبدو.

اقترب الشاب مني، تراجعت قليلاً إلى الوراء لا أدري ماذا ينوي أن يفعل، ولكنه سحب الحبل، فرُفعت الستائر عن اللوحات.

نظرت إلى اللوحات فشعرت أنها كلها تحدق بي! الفتاة منزعجة مني! شعرت بخوف شديد مما رأيت، فأغمضت عيني وقلت بصوت يرتجف: "أنا آسفة! ما كان علي أن أفعل هذا!"

أنزل الشاب الستائر على اللوحات، فلم أكن لأفتح عيني إن لم يفعل ذلك! لم تكن اللوحات قد تغيرت أبداً، إنما بت أشعر أنها

تحدق بي بانزعاج، لطالما شعرت أن هذه اللوحات مختلفة عن أي لوحة رأيتها في حياتي، إنها تنطق بشكل عجيب! تعبر عما تفكر به بكل تأكيد!

اقترب الشاب مني، ومد يده يطلب إلي أن أناوله الكتاب، فعلت، فتصفحه صفحة صفحة، وقلّبه بين يديه يريد أن يتأكد أن لا شيء قد أصابه، لا قطرة ماء، لا صفحات ناقصة، لا شقوق من أي نوع، ثم أعاده إلى مكانه على الرف.

أحسست أن العاصفة في الخارج بدأت تهدأ، ربما كان السبب هو هدوئي أنا ليس أكثر، ولكن الشاب تركني، وصعد إلى الطابق العلوي.

لم أكن لأبقى ثانية واحدة مع اللوحات! فهرعت أركض خلف الشاب لأصعد إلى الطابق العلوي أيضاً.

الفصل الخامس عشر

لم يقم الشاب بفصلي من العمل في المنزل، ولكنـه بكـل تأكيـد لم يعد يتحدث إلي. وبقيت أسـابيع أعمـل في التنظيـف، ولا أجـرؤ علـى الاقتراب من الغرفة السفلية، والكتب، والشاب بعد ما جرى.

خسارة أن أفقد صديقة كالفتاة في الكتاب، لقد كانت شـيئاً مهمـاً بلا شك! ولست أدري كم كانـت العلاقـة بـيني وبـين الـشاب حـسنة، ولكنني بكل تأكيد بت أفتقدها أيضاً.

أثناء التنظيف، فتحت درجاً كان يـستعمل لتخـزين مـا يخـص مخططات المنـزل، لم أكـن أفهـم شـيئاً في فـن العمـارة، ولكـن الفـضول دفعني للإمساك بالمخططات، والنظر إليها، لعلي أفهم منها شيئاً.

حدقت في الغرف، الخريطة تشبه تماماً ما رسمته الفتـاة، غـير أن الأحرف والأرقام مختلفة، فقد اختارتـها الفتـاة بنفـسها، أمـا هنـا فهي أمور هندسية معقدة.

نظرت جيداً في المخطط بحثاً عن أي غرفة ربما كانت سرية أو لم أكن لأجدها بنفسي، ولكن كل شيء بات واضحاً، ليس هنـاك غرفـة لا أعرفها، لقد اعتدت على المنزل بشكل غريب.

لففت المخطط، وفتحت الملف الذي كان في داخلـه، فانتبهـت إلى شيء لم يخطر ببالي من قبـل، إنـه تـاريخ، نظـرت إليـه، ثـم فتحـت المخططات ثانية لأتأكد من تواريخها أيضاً، إنه تاريخ بناء هذا المنزل، لقد بني منذ ثلاثين عاماً!

ماذا يعني هذا؟ الفتاة كانت في عمر العشر سنين تقريباً عنـدما دخلت هذا المنزل، وتوفيت فيـه في عمـر يقـارب الـستين، هـذا يعـني خمسين عاماً في هذا المنزل! كيف لها أن تسكن منزلاً منذ خمسين عاماً وهو قد بني منذ ثلاثين عاماً فقط!

دهشت لما وجدت، هل تكذب؟ هـل تختلـق مـذكرات كهـذه؟ أم أنني مخطئة؟

أعـدت المخططـات إلى مكانهـا، ولم أسـتطع أن أمنـع نفـسي مـن النـزول إلى الطـابق الـسفلي حيـث الكتـب، وذهبـت مباشـرة إلى آخـر كتاب، وبدأت أقرأ به هناك.

"عندما يكبر الإنسان في الـسن، تـصبح الحيـاة أكثـر روتينيـة، فطور في الصباح، قيلولة بعد الظهر، وجبة خفيفـة علـى العـشاء، بـل ربما كنت في أمس الحاجة إلى عناية طبية، ولكنني لم أطلب..."

قلبت الـصفحات في الكتـاب أكثـر، وقـرأت "يبـدو أن هـذه هـي

النهاية، ويبدو أنني لن أكتب حرفاً بعد اليوم، بل ربما بعد هذه الليلة. كم تمنيت أن يسمعني أحدهم وأنا أروي شيئاً مما كتبت، ولكن يبدو أنه علي الاكتفاء بالتمني أن يجد هذه المذكرات من يعتني بها ويقدرها، هذا كان أملي الأخير. فإن كنت ممن قرأ الرواية بانتباه وتشوق، فإني أرجو أن تسامحني، فهناك ما يجب أن تعرفه عني، وهو ليس مدوناً في هذه الكتب، بل هو مدون في اللوحات... وأخيراً أرجو أن توضع هذه الكتب فوق قبري، فهي أغلى ما أملك... تم بحمد الله"

انتهى الكتاب! نظرت إلى رف الكتب، ثم إلى الأسفل، إذا ما كانت الوصية الأخيرة قد نُفّذت، فهذا يعني أن هذه الغرفة... هي قبر هذه الفتاة! اقشعر بدني لمجرد التفكير أنها هنا!

ولكن... ماذا عساي أن أفعل الآن؟ أن أحدق في اللوحات من جديد! لطالما علمت أن اللوحات كانت ترمز إلى شيء في كل كتاب، ولكن... لا أظن أنني أجرؤ على رفع الستائر عن اللوحات بعد آخر مرة رأيتها فيها! لقد كانت مخيفة جداً!

أعدت الكتاب إلى مكانه المخصص، واقتربت من الدرج كي أصعد، ولكنني توقفت، ربما لا أجرؤ على النزول إلى هنا ثانية، ربما كانت هذه الفرصة الوحيدة للبحث عن الحقيقة الكاملة.

عـدت مجـدداً إلى الغرفـة، وأمـسكت بالحبـل أفكـر ملياً برفـع الستائر عن اللوحات، بقيت ممسكة بالحبل فـترة، وأوشـكت علـى أن أتركه، ولكـنني أغمـضت عـيني، وحـسمت أمـري، وشـددت الحبـل، فارتفعت الستائر عن اللوحات.

فتحت عيني ببطء، أخشى أن تكون الفتاة ماتزال غاضبة مـني! نظرت إلى لوحة، لست أدري مـاذا أرى فيهـا بالـضبط، ولكـن لم يكـن الوضع سيئاً كآخر مرة.

مشيت في الغرفة أقـترب مـن اللوحـات بحـذر، أبحـث عـن مـا قصدت الفتاة بما هو مدون في اللوحات. نظرت إلى اللوحات الواحدة تلو الأخرى، ربما كان ما يجب أن أفهمه هو رسمة في هذه الغرفـة، ربمـا عن قبرها أو ما شابه، ولكن ليس هناك رسمـة واحـدة لهـذه الغرفـة، ربما وضعت الأشياء هنا بعد موتها!

تعبت من التحديق في اللوحات، فكلما نظرت في إحداها شـعرت أن الأفكار تبتعـد أكثـر فـأكثر! يبـدو أنـه يـستحيل علـي حـل اللغـز الأخير، بل ربما هناك الكثير من الألغاز التي لم أحلها أساساً. هل قام الشاب بفك كل الأسرار يا ترى؟ وهل قام بفك السر الأخير أيضاً؟

ربما، ولكنني لن أسأله، هذا سؤال لـي، ويجـب علـي أن أقـوم

بحله بنفسي، بل ربما كان هذا آخر شـيء سأفعله في هـذا المنـزل، لم أعد أستطيع العيش هكذا أكثر.

بقيت أحدق في اللوحات، ومرّت الساعة تلو الأخرى، وأنا أعلـم تماماً أن الحـل هنـا، ولـيس في أي مكـان آخـر في المنـزل! ولكـن أيـن؟ وكيف؟ وماذا؟

حل المساء، وحان وقت العشاء، ولكـنني لم أغـادر، بـل لم أكـن أشعر بالجوع، كان علي فقط أن أجد حلاً لآخر لغز، الحقيقة الكاملة.

حل الصباح، وفتحت عيني، فإذا بي قد غفوت قليلاً رغماً عني، وما أزال جالسة في مكاني، أتكئ على رف الكتب، الذي بت أشـعر أن قبر الفتاة ربما يكون تحته تماماً.

وقفت احتراماً للمكان، ثم أخذت الكتاب الأخير ثانية، وأعدت قراءة آخر سطور "فإن كنت ممـن قـرأ الروايـة بانتبـاه وتـشوق، فـإني أرجو أن تسامحني، فهناك ما يجب أن تعرفه عني، وهو لـيس مـدوناً في هذه الكتب، بل هو مدون في اللوحات"

إنـه ليس مدوناً في هذه الكتب، فلم أكن قد قـرأت كـل الأجـزاء، ولكن... الحل في اللوحات، وفقط في اللوحات! في... اللوحات! في...

لـست أدري كيـف خطـر ببـالي شـيء غريـب كهـذا، ولكـنني

اقتربت من اللوحات، وقد كنت أخشى الاقتراب منها من قبل، وأمسكت بإحداها، وقلبتها، ولكنني لم أجد ما كنت أبحث عنه! ظننت أن الحرف "في" يعني تماماً في اللوحة، أي في داخلها! ولكن يبدو أنني كنت مخطئة!

أعدت اللوحة إلى مكانها، ولكن يدي بقيت ممسكة بالإطار، إنه يتحرك! رفعت اللوحة ثانية، هذه المرة أنظر إلى الزوايا، الزاوية اليمنى من الإطار تتحرك!

سحبت الإطار الأيمن، وفككته عن اللوحة، فإذا باللوحة مجوفة من الداخل، وفيها... ورقة!

سحبت الورقة، فإذا بها رسالة صغيرة مكتوبة بخط اليد، قرأت ما كتب فيها "كنت فخورة بها جداً، وكانت كنزي الثمين، وثمرة عمل دام طويلاً. كنت أشعر بالفخر والسعادة كلما عدت إلى غرفتي بعد عمل طويل وشاق، أحدق بها، وأنسى كل أحداث اليوم."

لا يبدو أن هذه هي بداية الرسالة! نظرت إلى حاشية الصفحة، فإذا بالرقم "١٢" قد كتب فيها، يبدو أنها الورقة الثانية عشرة.

أعدت اللوحة إلى مكانها، وقد علمت أن الرسالة موزعة بين اللوحات، بل ربما كل اللوحات.

باشرت العمل، وفتحت اللوحات الواحدة تلو الأخرى، وجمّعت القصاصات، إنها رسالة كاملة.

أعدت كل شيء إلى مكانه، ثم جلست أتكئ على المكتب أقرأ الرسالة كاملة "بسم الله الرحمن الرحيم، أبدأ رسالتي هذه باعتذار شديد لكل من تعلق بهذه المذكرات، فكما كتبت هذه الرسالة، كنت قد كتبت المذكرات، وقضيت في ترتيبها عمراً طويلاً، ولكن هذا العمر كان سيضيع لو لم أفعل شيئاً كهذا، فلم يكن في حوزتي ما أملك سوى القلم والورق.

فكرت أن أبدأ بذكر اسمـي، وعمـري، وهوايـاتي... ولكـنني لا أظن أن أحداً مايزال لديه الفضول لشيء كهذا، فبعد التعلـق بالفتـاة في المذكرات، حتى دون ذكر اسم لها، أظن أن اسمي لن يضيف الكثير.

كل ما يجـب أن تعرفـه أيهـا القـارئ أنـني كنـت أعمـل في هـذا المنزل، مجرد منظفة متواضعة، أكنس وأمسح كل يوم، نعم، هذه أنا، وهذا كل ما أملك من تعريف.

أما سكّان هذا المنزل، فهم أناس ظلمة، قاسين، متـسلطين، كـنّ يحرمنني من كل شيء، ويعاملنني بأسوأ مما كانوا يعاملون البهائم.

لم أكن أتذمر، ولم أكن أجادل، كنت فقط أعمـل لآكـل، وأنـام، رغم أن الطعام الـذي كـان يقـدم لـي لم يكـن سـوى كـسرة مـن الخبـز، والملاءة التي أنام عليهـا كانـت مـن أخـشن أنـواع القمـاش، ولكـنني لم أطلب أكثر من ذلك.

ساكنات المنزل كُنّ سيدة كبيرة مغرورة، مع ثـلاث بنـات لهـا، كلهنّ يشبهنها بالخلق والطباع! أما الأب فقـد تـوفي منـذ أعـوام، وزاد أذاهنّ لي بعدها، ولم أكن أدري لماذا.

ودارت الأيام، واعتدت على ممرات المنزل أكثر منهنّ، وسكنت غرفة الطابق السفلي بعيداً عنهنّ، ولم تكن إحداهنّ تحب أن تنزل إليّ

في الأسفل، فقد كان المكان رثاً قديماً ومهترئاً.

انتهزت الفرصة، وقررت أن تكون الغرفة في الطابق السفلي منزلي الخاص، لم يكن يحق لي أن أغلق الباب على نفسي، ولكن ما الفرق، فلم تكن إحداهنّ تحب النزول إلى مكان كهذا.

كنت أجمع بعضاً مما تلقي الفتيات من ثياب أو أدوات، كنّ قد أمرنني أن ألقيها في الحاوية، فكنت أنتقي منها ما أستطيع أن أستخدم، وألقي بالباقي، هكذا إلى أن تجمع لي بعض القماش الجيد لأنام عليه، وبعض الأدوات، بل أحياناً إكسسوارات جيدة الصنع!

وكنت مهتمة بتجميع شيء آخر، لم يكن ليخطر على بال، إنها الألوان، كنت مغرمة بالألوان واللوحات، وكان حلمي أن أرسم لوحة واحدة على الأقل، وقد حققت حلمي، بعد أن تجمّعت لدي بعض الأنابيب الشبه فارغة من الألوان، وقطعة قماش تنفع للرسم عليها، وبدأت أرسم.

استغرقت في الرسم ثلاثة أعوام، طبعاً إلى أن تتوافر الألوان اللازمة، والوقت الكافي، كما أنني لست من النوع المتمرس في الرسم، ولكنني لم أتوقف يوماً، وكنت أعمل بها كلما سنحت لي الفرصة، فكان إنجازي، لوحة فنّية متكاملة، لفتاة تقف أمام النافذة، تفتحها

ليطير شعرها مع نسيم الهواء.

كنت فخورة بها جداً، وكانت كنزي الثمين، وثمرة عمل دام طويلاً. كنت أشعر بالفخر والسعادة كلما عدت إلى غرفتي بعد عمل طويل وشاق، أحدق بها، وأنسى كل أحداث اليوم.

إلى أن جاء يوم وحدث ما لم يكن متوقعاً، فقد كنت في غرفتي أرتب بعض الحاجيات، وأضع بعض الأدوات الزجاجية شبه المكسورة على رف مهترئ كنت قد أحضرته إلى الغرفة بدلاً من إلقائه في الخارج.

أما اللوحة فقد كانت تقف على مسند تحت الرف، حيث تكون أول ما يقع نظري عليه عندما أدخل الغرفة، ولكن ما لم أحسب حساباً له أنها ستكون أول ما سيشاهد أي شخص يدخل الغرفة! وقد دخلت البنت الكبرى!

تجمدت في مكاني عندما رأيت الدهشة في عينيها، إنها ترى مكاناً مليئاً بالأدوات! بل إن عيونها لم تفارق اللوحة!

نظرتُ إلى الفتاة التي رسمت ابتسامة شرسة على وجهها، واقتربت من اللوحة، قلقت من ذلك، فمن عادة هذه الفتاة أن تفسد كل ما يصنع الآخرون، حسداً منها أنها لا تستطيع أن تفعل مثله.

وقفت الفتاة أمام اللوحة وضحكت بصوت مرتفع تقول: "وكنت أظن أنك تنظفين منزلنا، منذ متى كنا نرعى ليوناردو دافنشي!" ودفعت اللوحة بيدها.

كان هذا سيئاً جداً، فألوان اللوحة ستتأذى من أصابعها العنيفة، هممت لأوقفها، ولكنني توقفت عندما رأيت اللوحة تهز الرف المهترئ، فانكسر الخشب العلوي منه، وتساقطت الأدوات على رأس الفتاة، فأصدرت صرخة مدوّية في المنزل كله، وغابت عن الوعي إلى الأبد!

ما حدث في هذه الأثناء كان شيئاً علمت بحصوله فيما بعد، حيث كنت في غرفتي، ولكن الأم وابنتيها الصغيرتين نزلن الدرج مسرعات لنجدة البنت الكبرى، ولكن الثياب الطويلة جعلتهن يتعثرن على الدرجات، فسقطت الأم على ابنتيها الصغيرتين، ومتن الثلاثة على آخر درجة مؤدية إلى غرفتي!

ما إن رأيت هذا المنظر حتى علمت أنها نهايتي! الأربعة متن في غرفتي، فمن سيصدق أنني لم أكن السبب، خاصة أن الجميع يعلم كم كنّ يُسئن معاملتي!

بقيت واقفة وحدي، لا أدري ماذا أفعل، إلى أن اكتشفت أنني

لست وحدي، وإنما كانت اللوحة في الغرفة أيضاً إلى جانبي! إنها السبب في موت الأربعة وليس أنا! إذن هي من فعل ذلك!

هذا ما قلته في التحقيق، اليوم واليوم الذي يليه والذي يليه، إلى أن وضعوني في مصحة نفسية للمختلين، ومع ذلك لم أكن أغير أقوالي، إنها من فعل ذلك، لقد كانت أقوى مني، لقد فعلت ذلك لأجلي، لقد أنقذتني من معاملة سيئة دامت سنين طويلة لم أستطع التخلص منها إلاّ الآن!

في المصحة طلبت قلماً ودفتراً، وألواناً ولوحة، وهكذا عشت، أرسم وأكتب، لم أكتب شيئاً عني، بل عن الفتاة، فهي أحق مني في مذكرات وحكاية وبطولة.

أمضيت في المصحة سنين عمري الباقية، ولم يكن يزورني أحد سوى ابن عمي، الذي كان يتكفل ببعض الأمور الرسمية لبقائي في المصحة، فأخبرته أنني كتبت وصيتي، وأكدت عليه أن يعمل بها بعد موتي.

وصيتي كانت أن توضع اللوحات والكتب في غرفتي في المنزل، حيث أنني علمت أنه قد هجره الناس بعد الحادثة الأليمة، وأرجو أن يكون قد فعل.

كل ما أرجوه الآن أن تعلم أيها القارئ أنني كنت بريئة من الحادث، وأن الفتاة كانت الفاعلة وليس أنا، وهذه المذكرات ليتعرف الجميع على المجرم الحقيقي.

مع ذلك لا أريدك أن تكرهها، فالفتاة لديها السبب الكافي من الوحدة والحسرة لتفعل أكثر من ذلك، وقد كانت الأقوى، وحققت مرادها"

وانتهت الرسالة بهذه الكلمات، عندها سمعت صوتاً يقول: "وكنت تظنين أننا وحدنا"

التفت إلى الباب، فكان الشاب يقف هناك، وقال: "إنها معنا، لستها في كل زاوية من هذا المنزل، أكاد أشم عبير عطرها في ثيابي"

قلت وما أزال في دهشة مما قرأت: "ولكنها ليست حقيقية!"

سار الشاب في الغرفة وقال: "ليس مهماً أن تكون حقيقية أم لا، ما الفرق؟ معظم الأموات تركوا ما هو أقل من هذا"

لم أصدق أنني أسمع أحدهم يقول شيئاً كهذا، فقلت: "ولكنهم يتركون أرواحاً"

يبدو أن الشاب انزعج من إجابتي، وأنني لم أفكر بالأمر كما يفكر به هو، فغادر الغرفة دون أن يرد عليّ.

الفصل السابع عشر

بانت حقيقة الكتب واللوحات أخيراً، ولم يعد لدي فضول للقراءة أكثر، بينما كان الشاب قد قرأ المذكرات ربما أكثر من عشر مرات على التوالي رغم أنه كان يعرف حق المعرفة أن كل ما كتب في المذكرات هي خيالات لا أكثر.

ربما كان هذا الفرق القاسم بيني وبين الشاب، لم أعد أستطيع أن أفكر لحظة أنني ربما أدخل عليه الغرفة يقرأ بالكتاب نفسه، أو يعزف على البيانو اللحن الذي ابتكرته الفتاة، إنه يعيش في عالم وهمي!

لم أعد أستطيع أن أركز في شيء، أعلم أنني أريد التحدث إلى الشاب ثانية، أريد أن أسمعه، أريد أن أعرف بم يفكر.

تركت العمل، واتجهت إلى صالة البيانو، وفتحت الباب لا أبالي إذا كان الشاب يقرأ في الكتب أم لا، ولكنه لم يكن في الغرفة.

ذهبت إلى الصالة الرئيسية، ربما كان صعُب علي العثور على أحد في هذا المنزل في بداية الأمر، ولكنني الآن اعتدت على المرات، كما اعتادت عليه الخادمة صاحبة الرواية.

وجدت الشاب في الصالة، يجلس على كرسي يحـدق في الـشجر، هذه أول مرة أراه هكذا، من الجيد أنه يفعل شيئاً غير الذي كان يفعله كل مرة، ولكن منظره كان كئيباً.

اقتربت منه، فأحسست أنه انزعج، وأنني أقلقـت راحتـه، بـل ربما أقلقتها منذ زمن.

وقفت أمامه وقلت: "كيف حالك؟"

نظر إلي وقال: "بخير"

إجابة جيـدة بالنـسبة لـشخص مثلـه، وقـد التفـت إلـي أيـضا! فقلت: "أزهرت الأشجار، وبات منظرها جميلاً جداً"

عاد الشاب يحدق في الشجر، يبدو أنه لم يكن ينظر إلى الأزهـار على الإطلاق.

قررت أن أدخل في الموضوع مباشرة، فقلـت: "لقـد انزعجـتَ ممـا قلتُ"

تنهد الشاب، يبدو أنه لا يريد أن يتحـدث في الموضـوع، ولكنـه قال بعد مدة: "أنتِ لا تقدرين إبداعات الآخرين"

فأجبته بسرعة: "وأين إبداعك أنت؟"

نظر الشاب إلي، فقلت: "لم أرك تفعل شيئاً في هذا المنـزل سـوى

قراءة المذكرات، حتى عزفك على البيانو كان تماشياً مع ما جرى في المذكرات أيضاً، حتى أنك لا تقرأ كتاباً آخر! ماذا تظن أنك فاعل؟"

لم يقل الشاب شيئاً، فتابعت قائلة: "أنت في عمر الشباب، ولديك طاقات هائلة، من الخسارة أن تهدرها في أيام روتينية، اخرج وانظر ماذا ينتظرك في الخارج!"

أشاح الشاب عني، فانزعجت لذلك وقلت: "ربما كنت أعمل لأنني بحاجة إلى المال، ولكنني على الأقل أعمل! ربما لا تكون بحاجة إلى المال، ولكن هذا لا يعني أن حياتك انتهت هكذا! لديك خيارات كثيرة، ولكنك لا تبحث!"

قال الشاب بلهجة الغير مكترث: "أنا مرتاح هنا"

فقلت منزعجة: "أنت طبعاً كذلك! ولكن هل الراحة هي كل ما تريد في هذه الدنيا؟"

التفت الشاب إلي، فشرحت له وجهة نظري: "ألا تريد أن تبدع في شيء؟ أن تضيف شيئاً إلى العالم؟ أن تساعد في الاكتشافات، في الاختراعات..."

لم يقل الشاب شيئاً، ولكنه مايزال لا يشعر بما أقول، فتنهدت وقلت: "لا أنكر أن المذكرات كانت إنجازاً عظيماً، وقد قالت أنها

وضعت كل ما تملك فيها، فلم تكن تملك سوى القلم والورق، فهي شخص عظيم فعلاً، ولكن... ماذا عنك أنت؟ هل ستظل تعظم في أعمال الآخرين؟ ألا تظن أنها يجب أن تكون قدوة لك لتعمل؟"

لم يقل الشاب شيئاً، فقلت: "هل تظن أنها ستكون سعيدة بانعزالك إلى جانب المذكرات طول الوقت؟ ألا تظن أنها ستكون أسعد إذا عملت عملاً أفضل مما قامت به؟"

طأطأ الشاب رأسه، فقلت له برفق: "أنت في مقتبل العمر، أرجوك ألا تنتظر حتى يتأخر بك السن لتكتشف أن المغامرات باتت شيئاً صعب المنال! اخرج إلى العالم، انظر ماذا يفعلون، وساهم معهم، أرى فيك مستقبلاً باهراً، ولكنك تضعه تحت قدميك!"

أغمض الشاب عينيه دون أن يقول شيئاً، فقلت: "خسارة" وأمسكت جهاز السمع خلف أذني، ورفعته عنها، فحدق بي الشاب وكله دهشة مما فعلت! فقلت: "لم أعد أستطيع البقاء هنا، أشكرك على كل ما فعلته من أجلي، ولكنني ما أزال شابة، ومايزال لدي الكثير لأفعله"

وضعت جهاز السمع على الحوض بالقرب مني، ثم قلت: "ربما تظن أنني غبية، ولكنني لا أحبس نفسي في سجن ضيق إلى الأبد، حتى

وإن لم أسمع شيئاً، فإن لدي الكثير من الطاقات التي أستطيع استغلالها في مساعدة الآخرين، وجودي هنا لن يضيف شيئاً، بل إنه يساعدك على البقاء في عزلة دائمة"

حدق الشاب بي، لا يصدق أنني أفعل شيئاً كهذا، ولكنني قلت: "أستأذنك الآن، فأرض الله واسعة، وهو يعلم أنني أريد أن أفعل الكثير، ولن يضيعني"

حدق الشاب بي، وحرك فمه بكلمة لم أسمعها! فدمعت عيناي للحال التي عدت إليها، وقلت: "إن كانت هذه جنتك على الأرض، فجنّتي أنا في السماء"

وركضت خارج المنزل والدموع في عيني! لم ألتفت خلفي على الإطلاق، ولا أعلم كيف كانت ردة فعل الشاب لما فعلت، بل إن الفضول يقتلني لأعرف ماذا كانت تلك الكلمة التي قالها الشاب لي.

لا أظن أنني أثّرت به كثيراً، فهو بليد الحس جداً، بل ربما يظن أنني غبية، بل أستحق أسوأ مما كنت عليه، ولكن الآن لم يكن الوقت المناسب للتفكير فيما تركت، فأنا لا أملك شيئاً، والمستقبل الذي تحدثت عنه أكثر غموضاً بكثير من بضع كلمات قلتها! ماذا أفعل؟ أين أذهب؟ وإلى أين سيقودني الطريق؟...

الفصل الثامن عشر

كان صوت آلة التنظيف مرتفعاً، أمسكت جهاز الأذن، ورفعته عن أذني، وأكملت التنظيف لا أسمع إزعاجاً على الإطلاق.

حضرت ابنتي الصغيرة تنادي، ولكنني لم أسمعها، فاقتربت مني، وأمسكت بثيابي، فنظرت إليها، وأطفأت آلة التنظيف، ووضعت الجهاز على أذني ثانية، لأسمعها تقول: "أمي! أين الأواني المائية الجديدة؟"

قلت لها: "حبيبتي، لقد أرجعتها معك من المدرسة، لابد أنك وضعتها في غرفتك"

"كلا! إنها ليست في الغرفة!"

عندها سمعت صوتاً آخر يقول: "أين حذائي؟" هذه المرة كان صوت زوجي! هممت بالإجابة عليه، ولكن صوتاً آخر قال: "أمي! أنا مستعدة للذهاب إلى المعهد" ...

شعرت لحظة أنني أريد أن أرفع جهاز الأذن، ولكن أصواتاً كهذه كانت محببة إلى قلبي، فقد دارت بي الأيام، ومضت معي السنوات، وباتت لدي عائلة مكونة من خمسة أطفال، وزوج حنون، هم ثمرة عمل متواصل في هذه الحياة، ورب لا يضيع أحداً.

أصبحت في عمر الخمسين، وأصبحت حياتي مليئة بالعمل أكثـر من ذي قبل، فمنزلي له متطلبات كـثيرة. أمـا جهـاز الأذن هـذا، فقـد اشتريته بنفسي، من نقود كنت قد جمّعتهـا بالعمـل المتواصـل. كانـت أياماً شاقة، ولكنني الآن وبفضل الله أسعد من أي شخص على وجه هذه البسيطة.

ذهبت مع ابنتي إلى غرفتها، ومررت بالصالة حيـث كـان ابـني الكبير يقلّب في محطات التلفاز، فجأة لمحت شخصاً يتحدث في القناة، كان مألوفاً.

غيّر ابني المحطة حيث لم يكن مهتماً بمـا فيهـا، فقلـت لـه أن يعيد المحطة السابقة، تعجب من طلبي، فلـيس مـن عـادتي أن أحـب الاستماع إلى أشخاص يتحدثون مع الصحافة على التفاز! ولكن هذا كان شيئاً آخر، فقد أعاد ولدي المحطة، وكنت محقة فيما ظننـت، إنـه... الشاب!

قال المذيع: "وطبعاً كان لاكتشاف حياة جديدة في كواكـب أخـرى أثر كبير على العلم والحضارة، فمن يدري، ربما نـستطيع أن نكتـشف حضارات ومدناً بعيدة عنا أيضاً"

ابتسم الشاب وقال: "ربما"

عندها قال المذيع: "لقد اقتربنا من نهاية مقابلتنا، فهل تحب أن تقول شيئاً على الهواء مباشرة؟"

نظر الشاب إلى الكاميرا، فكانت نظراته هي ذاتها التي كان ينظر بها إلي في الماضي، وقال: "أردت أن أشكر فتاة كنت قد التقيتها آخر مرة منذ عشرين عاماً على الأقل، أردت أن أقول لها أنني أكملت تعليمي، وحصلت على شهادات وامتيازات كثيرة، وها أنا أطير في الفضاء، إنه ليس رمز الوحدة كما كنت أظن، بل رمز التحدي والاكتشاف، ففيه الكثير مما لا نعرف، فأردت أن أخوضه، وأن أضيف شيئاً للأمة. أرجو أن تكون بخير، وفي أحسن حال، فأنا في أحسن حال الآن، وأردت دوماً أن آخذها معي في رحلة قمرية، فهي تستحق الأفضل"

بدأت عيناي تذرفان الدموع، ونظر أولادي إلي لا يفهمون ما يجري، ولكنني قلت: "ربما لا أستطيع الذهاب إلى القمر، ولكنني أرسلته إليه"

ومسحت دموعي، ونظرت إلى أولادي وقلت: "وأنتم، ماذا ستصنعون؟"

– تمت بحمد الله –